منصور عبد الحكيم

300

تيمورلنك

إمبراطور على صهوة جواد

سفَّاك الدماء وهادم الحضارات

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

Sun.
16/12/2012
Riyadh

تيمور لنك

TIMOER LENK

القائد المغولي تيمورلنك ظهر فى القرن الرابع عشر الميلادى ليجدد أفعال أجداده من المغول ويعيد مسيرة جنكيزخان وهولاكو ويؤسس إمبراطورية على جبل من الجماجم بنى امبراطوريته وهو على صهوة جواده .. ولد عام ٧٣٦هـ = ١٣٣٦م فى مدينة كش وتسمى الآن "شهر سبز" جنوب سمرقند فى قبيلة البرلاس الأوزبك، اختلف تيمورلنك الذى لم يحمل لقب إمبراطور أو ملك بقوة بطشه التى تعادل قوة بطش جنكيز خان إلا أنه كان ينتمى إلى المسلمين ولم ينتم إلى سلالة [illegible] استطاع أن يجمع قبائل التتار ويخضعها لحكمه ثم استدار على العالم الإسلامى [illegible] لال العراق وبلاد الشام واستطاع القضاء على الإمبراطورية العثمانية فى معر[illegible] ام ٨٠٤هـ = ١٤٠٢م ومات السلطان العثمانى غماً وكمداً فى الأسر.

وتقرأ فى هذا الكتاب سيرة هذا البطل الأسطورى تيمورلنك منذ مولده وحتى هلاكه وهو فى طريقة لغزو الصين كما هلك سلفه جنكيز خان.

وتقرأ أيضاً كيف استطاع تكوين إمبراطورية كبرى ضمت العالم الإسلامى وبلاد الروس من جورجيا وأرمنيا.

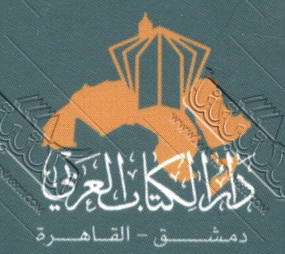
وتقرأ كيف هلك فجأة وهو فى قوته فى ٨٠٧هـ بعد أن دانت له البلاد من الهند إلى الشام ودفنه فى سمرقند حيث ضريحه هناك ثم تفككت إمبراطوريته بعد موته واختلاف أحفاده وأولاده فيما بينهم، إنه كتاب يبحث فى عبقرية هذا الرجل الذى يعشقه أهل سمرقند والتتار والمغول ويعدونه بطلا قومياً أوجد لهم مكاناً على خريطة العالم لسنوات فى الزمن الغابر.

إنه كتاب جديد بك عزيزى القارئ أن تقرأه وتطلب من غيرك الحصول عليه لكاتب متميز فى هذا المجال وسبق وأن صدر له أكثر من كتاب لعظماء التاريخ والمغول والعرب وغيرهم من شخصيات غيرت مجرى التاريخ العالمى.

W.Salama 010 15 17 873

I.S.B.N. 977-376-492-1

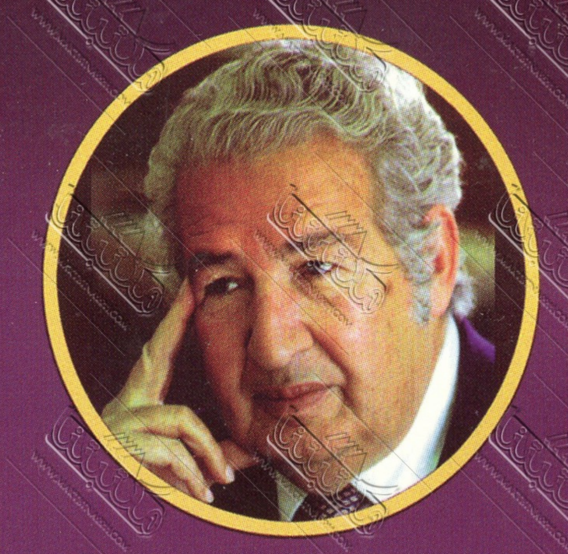






قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس



كتابنا القادم

وكر الوطاويط

الأعمال الكاملة



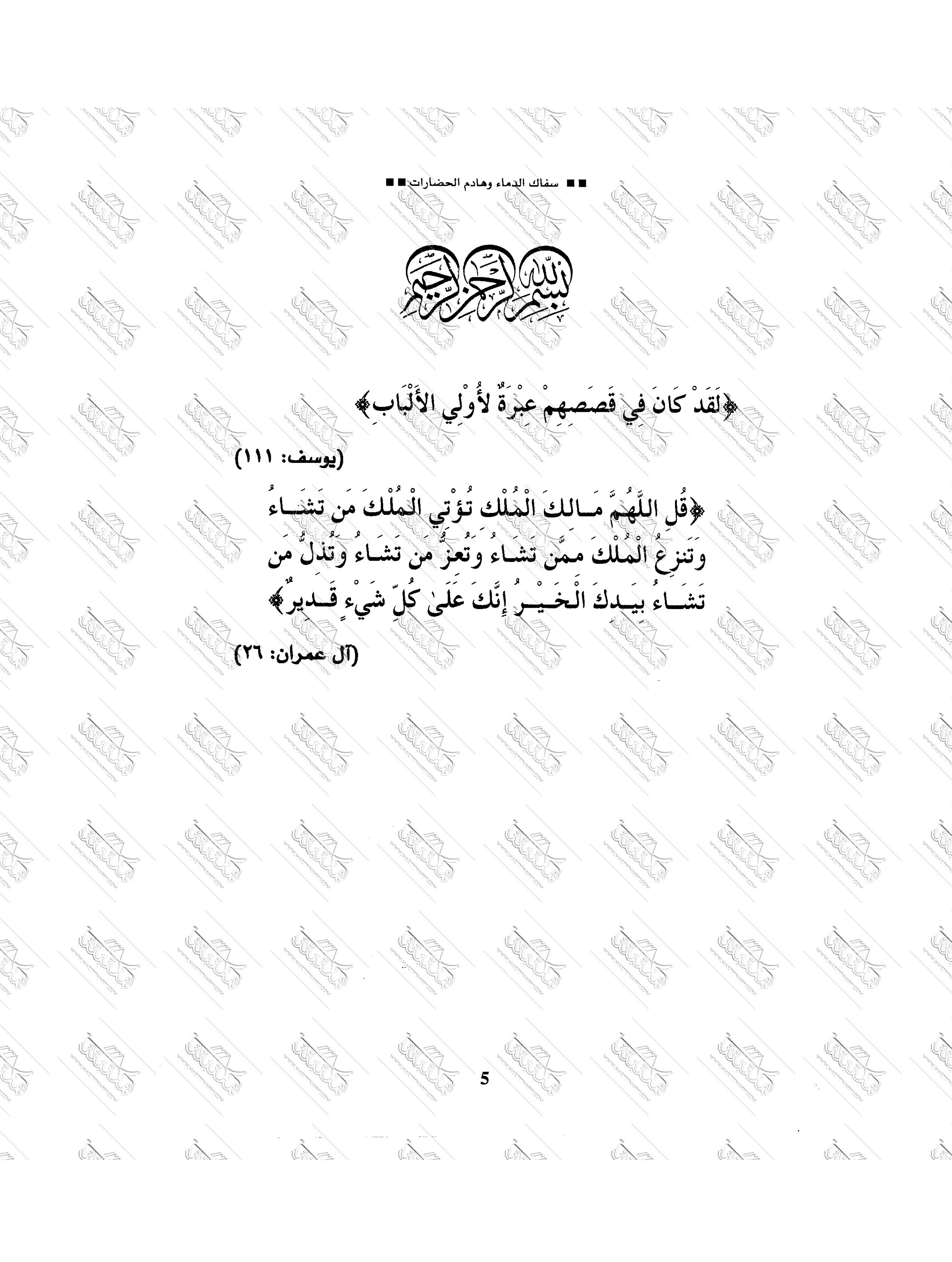
تيمور لنك امبراطور على صهوة جواد

◆

منصور عبد الحكيم

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾

(يوسف: ١١١)

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(آل عمران: ٢٦)

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نِدَّ له، خلق الخلق وقدر الأرزاق فلم ينس أحداً، سبحانه وتعالى عما يشركون، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، هو الجبار القهار، فمن تسربل بلباس الجبابرة قصمه الله وصيره ذكرى وأحاديث وأماثل وعبرة لمن أراد الاعتبار.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه خير الرسل وخاتمهم بلغ الرسالة وأدى الأمانة فكان خير من بلغ عن الله عز وجل فختم الله به الأنبياء والمرسلين فلا نبى ولا رسول بعده صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الكرام ومن تبع هداه إلى يوم الدين..

ثم أما بعد.

فقد تحدثنا فى إصدارات سابقة عن سيرة ملوك المغول الأوائل وعن سيرة مؤسس إمبراطوريتهم الأخيرة جنكيزخان ثم حفيده هولاكو، وما ألحقوه بالعالم كله من دمار وخاصة العالم الإسلامى، ثم دخولهم فى الإسلام، وبالرغم من إسلام معظمهم إلا أنهم لم ينسوا سابق عهدهم من تدمير الأمم والحضارات وسيرهم على نهج جدهم الأكبر «جنكيزخان» فقد سرت الجينات الوراثية فى عروقهم ودمائهم فظلوا على سابق عهدهم من شوك الدمار وقتل الشعوب وهذا يتضح جليّاً فى سيرة أحد ملوكهم الذى جاء بعد دخولهم الإسلام «تيمورلنك» حفيد هولاكو وجنكيزخان الذى دمر حضارات وسفك دماء الشعوب أكثر من سابقيه من أجداده.

وقد يعادله سفاح القرن الواحد والعشرين بوش الابن الرئيس الأمريكى

الراحل عن البيت الأبيض إلى غير رجعة بعد سفك دم أكثر من مليونى عراقى مسلم فى غضون سنوات قليلة فى فترة حكمه كما فعل هولاكو التترى وحفيده تيمورلنك، فكان بوش الابن مثلهم يحمل جينات السفك والهدم، يقتل ويهدم من أجل الحضارة وهو يبتسم بدم بارد كما كان يبتسم وهو يُضرب بالحذاء من الصحفى العراقى على أرض العراق فى آخر زيارة له للعراق فى أيامه الأخيرة بعد انتهاء ولايته الأخيرة فى يناير عام ٢٠٠٩ م.

هكذا يكون الطغاة سفاكو الدماء كالحيوانات المفترسة التى تحيا على لحوم ودماء الضحايا وهكذا سيظلون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وفى هذا الإصدار نستعرض سيرة هذا الطاغية حفيد هولاكو وجنكيزخان كما يدعى والذى يعده البعض بطلاً قومياً ويدعون أن له حسنات تذكر رغم سفكه لدماء المسلمين وهدمه لحضارات كانت موجودة على الخريطة السياسية للأرض كى يقيم إمبراطورية على منوال أجداده المغول التتر.

وبالفعل استطاع ذلك لفترة قصيرة من الزمن حيث انتهت إمبراطوريته بعد وفاته مباشرة، فهل يتعظ الطغاة!!

فكثير من الطغاة يولدون من رحم التمرد، وتيمورلنك من هذا الصنف كما كان جده الأكبر جنكيزخان حين بدأ حياته متمرداً على ما آل إليه وضع أسرته وعائلته.

فقد بدأ تيمورلنك مشواره لتحقيق أهدافه وتكوين إمبراطورية بالثورة ضد «تغلق خان» ثم صراع مع الأمير حسين ثم استيلاؤه على الملك وحروبه وحملاته ضد الدول المجاورة كما فعل جنكيزخان تماماً.

وانتهت حملاته وحروبه من تدمير دول وحضارات فاستولى على بلاد فارس واجتاح بلاد جورجيا وأرمينيا والعراق وبلاد الأتراك العثمانيين والهند وأذربيجان ثم انتهت حياته وقد جاوز السبعين من عمره وهو يجهز لغزو بلاد الصين.

إنها حياة حافلة بالغزو والقتل والاحتلال حياة استمرت حوالى سبعين عاماً على صهوات الجياد وفى الخيام والقصور، حياة غير هادئة لكنها فى نظر

صاحبها هى الحياة الحقيقية.

لكنها فى النهاية حياة لشخصية أثرت فى حياة الشعوب حينًا وفى زمانها تستحق الدراسة والتأمل وليس الاستعراض القصصى فقط.

فالله عز وجل حين ذكر فى قرءانه الكريم بعضاً من قصص الطغاة مثل فرعون والنمرود وغير ذلك من القصص قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾.

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لاستخراج العبرة من سيرة هذا الطاغية الذى يعده البعض وهم قلة بطلاً لعلنا نستفيد من سيرته، فما أكثر الطغاة فى عصرنا الحالى.

إن سر الطغاة ووجودهم يكمن فى ضعف واستسلام الشعوب لهم فلا يوجد فرعون ولا نمرود ولا طاغية إلا فى ظل شعب مقهور ضعيف يستسلم له مستكين لظلمه وطغيانه، وفى المقابل ينسى هذا الطاغية ما فعله الله بأمثاله من الطغاة السابقين الذين امتلأت صفحات التاريخ بسيرهم وقصصهم وقد رحلوا غير مأسوف عليهم تشيعهم اللعنات من شعوب الأرض فى قبورهم.

ما أكثر الطغاة والجبارين وما أكثر الشعوب المستكينة الضعيفة التى صنعت هؤلاء الطغاة، فوراء كل طاغية شعب ضعيف لا إرادة له.

نسأل الله التوفيق والسداد وأن يتقبل منا عملنا هذا وسائر أعمالنا الصالحة خالصة له وأن تكون ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

منصور عبد الحكيم

Mansor -- 2455 @ yahoo. com



1

الطغيان والطغاة

- وصف شخصية الطاغية من منظور علم النفس.
- الحاكم المستبد الطاغية فى القرءان الكريم.
- الشعوب الضعيفة والمنافقة هى صناعة الحاكم المستبد الطاغية.
- العبقرية والذكاء فى شخصية الحاكم الطاغية.

شخصية الطاغية من منظور علم النفس

لقد ابتليت البشرية على مدار التاريخ بشخصيات طاغية لطخت صفحات التاريخ بالظلم والعدوان والدم والعار، منهم على سبيل المثال: فرعون الذى أضل قومه فأطاعوه حتى قال لهم أنا ربكم الأعلى وصدقوه فتمادى فى غيه إلى أُغرقوا جميعاً فى البحر، وهتلر الذى قاد شعبه والعالم إلى هاوية سقط فيها ومعه ٤٥ مليون من العسكريين والمدنيين، وصدام حسين الذى أذاق شعبه كل مرارات الحكم الدكتاتورى المستبد ودفع به إلى أتون حروب مدمرة ثم تركه فى النهاية بعد أن ورطه فى احتلال أمريكى، ومعهم بوش الابن الذى فاق من تقدمه من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية فى إذلال الشعوب وفى الزمن الغابر كان جنكيزخان وأولاده وأحفاده ثم أخيراً وليس آخراً تيمورلنك.

ولقد جمعت هذه الشخصيات صفات مشتركة مكنت علماء النفس والاجتماع من تصنيفهم تحت بند «الشخصية البارانوية الملوثة بسمات سيكوباتية ونرجسية» وهى مصطلحات علمية تصف لنا تلك الشخصية المرضية التى تصل إلى كرسى الزعامة.

وإذا عدنا إلى النشأة الأولى للشخص «البارانوى» نجد أنه قد عاش فى الغالب طفولة مضطربة تتسم بصعوبة إقامة علاقة ثقة دافئة مع أحد الأبوين أو كليهما.

وفى أحيان أخرى تكون الأم عنيفة ومسيطرة والوالد ضعيفاً ومستسلماً وفى هذا الجو الأسرى المضطرب الخالى من الحب والثقة يتعلم الطفل أنه لا أمان ولا ثقة ولا حب، وأن العالم المحيط به يتسم بالعدوانية والقسوة ولا مكان فيه إلا للقوى المسيطر المستبد.

ويوقن أن التعاون مع الآخرين غير مجدٍ ولا يعطى ثقته لأحد ومن هنا تنشأ جذور استبداده برأيه واستخفافه بكل من عداه فهو وحده الذى يملك الحقيقة المطلقة، وهذا الشخص حين يكبر يكون بالغ الحساسية لأية كلمة أو إشارة تصدر من الآخرين ويعطيها تفسيرات كثيرة تدور كلها حول رغبة الآخرين فى مضايقته وإيذائه والحط من شأنه.

فهو لا يعرف النوايا الحسنة، بل إن كل شىء بالنسبة له يحمل نوايا عدوانية شريرة من الآخرين وهو يحتقر العواطف العليا مثل الحب والتسامح والرحمة والتعاطف ويعتبرها نوعاً من الضعف فى الشخصية، وتصبح القيم السائدة عنده: القوة والتفوق والتملك والانفراد بكل شىء، ويصبح الصراع عنده بديلاً عن الحب فى كل علاقاته بالآخرين حتى أقرب الناس إليه.

وبناءً على هذه النظرة للعالم نجد أن الشخص البارانوى يسخر كل إمكاناته ويستغل إمكانات من حوله فى سبيل الوصول إلى مركز يمكنه من السيطرة والتحكم والانتقام والتشفى، فهو دائماً شديد الحسد، شديد الغيرة، لا يطيق أن ينافسه أو يطاوله أحد.

وهو يبالغ كثيراً فى تقدير ذاته وقدراته ولديه شعور بالعظمة والأهمية والتفرد، وفى المقابل يحط كثيراً من قيمة الآخرين ويسفههم ويميل إلى لومهم وإلصاق الدوافع الشريرة بهم.

وفى بداية مشوار هذا الشخص البارانوى يكتشف أن صفاته السابق ذكرها تجعله معزولاً عن الناس، ويشكل هذا عائقاً فى طريق طموحاته وأطماعه الواسعة، فيبدأ فى اكتساب بعض السمات السيكوباتية النفعية حتى يصل إلى ما يريد، فيتعلم الكذب والخداع والتظاهر بالمودة والاحترام والصداقة، وربما يتوشح ببعض القيم الدينية والأخلاقية ذات القيمة الاجتماعية والإنسانية العالية بغرض خداع الناس، أو يبدو فى صورة الضحية المظلوم.

وفى رحلة خداعة لغيره يكتسب هذا الشخص الصفات التالية:

١ ـ العجز عن الولاء الدائم للأشخاص أو المجموعات أو القيم الاجتماعية أو الدينية إلا بقدر ما تحقق له من مصالح ذاتية مرحلية، ثم سرعان ما ينبذ هذا الولاء أو يدوسه بقدميه.

٢ ـ المبالغة فى الأنانية فيسخر كل شىء لتضخيم ذاته.

٣ ـ التبلد فى الشعور مما يمنحه قسوة حتى على أقرب الأقربين له.

٤ ـ عدم المسئولية، مما يدفعه لمغامرات خطرة العواقب.

٥ ـ انعدام الشعور بالذنب، وهذا يجعله يتمادى فى قسوته إلى آخر الطريق.

٦ ـ القدرة على تقديم تبريرات ظاهرة الوجاهة والإقناع لما يقدم عليه من تصرفات.

وإذا اكتملت هذه التركيبة الشخصية للطاغية (الشخصية البارانوية الملوثة بسمات سيكوباتية ونرجسية)، وإذا استطاع أن يحتل موقعاً قياديا (غالباً بالغدر والخديعة) فعندئذ يندفع هو ومن وراءه نحو حلم القوة والسيطرة والتميز والعنصرية، ويستطيع الطاغية بما يملكه من قدرات وأحياناً كاريزما شخصية أن يقنع أتباعه الذين يحلمون بالبطل الأسطورى بأنه هو ذاك البطل الذى جاء ليقود العالم.

وهكذا يبدؤون فى تمجيده ويغالون فى ذلك إلى حد تقديسه فيضعون له التماثيل والصور ويضعونها فى الميادين العامة وفى كل مكان.

وهو فى سبيل استمراره فى طغيانه يمنى من حوله ويعدهم بالمستقبل الباهر والجنة على الأرض ويبالغ فى تصوير قدراته وانتصاراته فتصدقه الجماهير ويعيشون جميعاً فى سكرة الوهم حتى يفيقوا فى لحظة ما لابد آتية على انهيار كل شىء.

واستقراء التاريخ الإنسانى يضع أيدينا على حقيقة لم تتخلف وهى: أن التاريخ كله لم تخل أية مرحلة من مراحله عن طغاة يختلفون فى الشكل والصورة والوسائل، ولكن الجوهر، والملامح الأساسية ـ نفسيا وسلوكيا ـ واحدة

لا تتبدل، ولا تتغير ولعل «فرعون» هو الصورة النموذجية «للطاغية» على مدار التاريخ الإنسانى، حتى صار اسمه مصدراً لاشتقاق الأفعال والصفات.

فمن الاستعمالات الدارجة قولهم «فلان تفرعن» أى صار ظالماً جباراً مفترياً ميت الضمير.

ويقال: «الناس فرعنوا الحاكم» أى صاروا ينافقونه، ويباركون مظالمه وخطاياه، حتى عميت بصيرته، وصار - فى مظالمه، ومآثمه، وجبروته وغروره - كفرعون موسى. لأن الشعوب المستضعفة المنافقة هى صانعة الفراعين والطغاة، وحيث يوجد طاغية يوجد شعب ضعيف.

وأسهب القرءان الكريم فى تحديد شخصية فرعون فزيادة على ادعائه الألوهية نرى ذكر ما قام به من الإسراف فى القتل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

وامتد الإجرام الحسى إلى الجانب العقدى، الذى يرتبط الإنسان عقلاً وهذا الطغيان لا يتوقف فعليهم ألا يعتقدوا، ويعتنقوا إلا ما يعتقد، ويعتنق، ولا يؤمنوا إلا بما يرى هو أن يؤمنوا به وجاء السحرة الذين جمعهم فرعون لمواجهة موسى عليه السلام، ما جاءوا إلا طمعاً فى المال والدنيا قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف: ١١٤).

وترتفع معنوياتهم بهذا الوعد المادى، وتتفتح قلوبهم للطاغية حتى إنهم ليقسمون بعزته ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء: ٤٤).

ومن مكانه الفوقى وبرجه العالى وكما يحدث فى كل عصر قال فرعون لقومه: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (الشعراء: ٥٤).

وحينما يظهر للسحرة وجه الحق يعلنون إيمانهم بموسى ورب موسى، ويعجب فرعون ـ وهو رب القوة، وزعيم الأغلبية ـ كيف لم يستأذنه هؤلاء «المارقون» قبل أن يعلنوا إيمانهم ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ٧٠ ـ ٧١).

هذا هو منطق الفرعون الطاغية، فكلمة فرعون تعنى الملك ولكن فرعون موسى جعلها رمزاً للطغاة.

وفرعون كان يقف على رأس النظام الذى يتحكم فى كل أموره أما هامان فكان وزيره الأول مثل رئيس الوزراء فى زماننا، أى على رأس السلطة التنفيذية، يتلقى الأوامر من فرعون وهو مثله تماماً.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: ٨).

فى كتابه «المفردات فى غريب القرآن» عرف الراغب الأصفهانى «الطغيان»، بأنه «تجاوز الحد فى أى شىء ويقال «طغى الماء» إذا جاوز الحد المعقول المعروف.

والطاغوت، هو كل متعد وكل معبود من دون الله، ويستعمل فى الواحد والجمع وناقشت هذه الدراسات النفسية الأسباب والعوامل التى تجعل من الإنسان طاغية؛ ووصلوا إلى أنه من الصعب ـ بل من المستحيل ـ تعليل ظاهرة «الطغيان» بعامل واحد، أو علة واحدة، إنما ترجع إلى عدد من العوامل المتشابكة، المعقدة، ولكنها تتفاوت فى التأثير والتوجيه.

منها طريقة التربية والطفولة القاسية المطحونة بظلم الأهل والأبوين، فينشأ مسكوناً بالتطلع إلى الانتقام الذى تغذيه عقدة الشعور بالاضطهاد.

فإذا ما جاءته فرصة الحكم، تحكم وظلم، وقصف أعناق العباد، ووجد فى

ذلك متعة، ولذة تعوضه عن عذابات الطفولة ومرارة الماضى الأول له وهو الطفولة القاسية.

ويظل مسكوناً بعقدة العظمة أو التعاظم، مما يدفعه لبناء مجده الشخصى بأى ثمن، وبأى حساب، ولو جاء فى صورة ممسوخة شاذة مشوهة وفى سبيل إشباع هذه الشهوة العارمة، فلتهلك الأمة عن جهل، أو عن بينة، المهم أن يصعد ويعلو ولو على جبل من الجماجم.

وتبلغ النرجسية كما قال فرعون: (أنا ربكم الأعلى).

إضافة لغفلة الأمة، وتراخيها، وضعف إحساسها بذاتها، وانعدام تقديرها للمسئولية، فما كان الحاكم ليستند إلا بأمة تملك «قابلية الخضوع والخنوع والاستسلام» حتى ترى من الظلم ألا تظلم ومن الضيم ألا تضام!!»

وقد عرض «ديورانت» فى كتابه «قصة الحضارة» كيف أن نفاق الشعب هو الذى جعل من «نيرون» طاغية، مع أن نيرون ـ كما قال عنه أستاذه الفيلسوف سنكا ـ كان طالباً مجدّاً، وكان فى بداية عهده رحيم القلب، شفوقاً على الرعية، حتى إنه ـ لما طلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أحد «المجرمين ـ قال فى حسرة» ليتنى لم أتعلم الكتابة قط!!

وقد خفض الضرائب الباهظة، وخصص معاشات دائمة للشيوخ المعوزين.

ثم جاءت بطانة السوء، فنافقته، واستشرى النفاق فى الشعب كله حتى ألهوه، ومسخوا طبيعته السوية النقية.

إن الظلم والاستبداد والدكتاتورية؛ كل أولئك لا تنشأ فى السلطة، صحيح أنها تنفذ من خلال القوة، ولكنها لا تولد معها بل تكون موجودة فى النظام الداخلى للإنسان، وعندما يمتلك القدرة تنعكس على واقعه.

ونحن لا ننتبه إلى أن الاستبداد لا يقتصر على الحاكم، فمجتمعنا ملىء بالمستبدين الصغار الذين يمارسون الاستبداد كل فى مجاله عمله.

فإن رأيت من يظن أن أى عملية حوار تهديد لوجوده، أو أنه يمتلك ناصية

الحقيقة التى لا يعتريها شك، فاعلم أنه إن تمكن من خلق الله فيسحقهم ويستبد بهم، فهناك المدير المستبد كما أن هناك الحاكم المستبد.

ومنذ أن بدأ الملك العضوض فى الأمة، منذ القرن الأول الهجرى فى العصر الأموى والحكم ينقل من مستبد إلى يد آخر، فلقد كانت صلاحيات الخليفة صلاحيات دكتاتور مطلقة ومصائر الناس معلقة على كلمة من فمه إما كيس الدنانير أو سيف السياف.

وكتب التاريخ الإسلامى مليئة وشاهدة على جور وطغنان الملوك والخلفاء.

لقد ارتبط السعى للتغيير قديماً بشخص الحاكم، أو المؤسسة الحاكمة وأصبحوا يستبدلون حاكما مستبداً بآخر يحمل فى ثقافته الداخلية بذور الاستبداد والقمع التى تربى عليها، وانتقلت إليه بالجينات بمعنى أن الذين قادوا التغيير كانوا يحملون فى بنيتهم الداخلية استبداداً مكبوتاً، ما إن تمكن حتى ظهر وقام بدوره! وأن الجماهير الذين كان من المفترض أن يرفضوا الديكتاتورية والاستبداد تخاذلوا ورضوا، أو قعدوا فى مقاعد المتفرجين وكأن الأمر لا يعنيهم، كانوا يحملون فى داخلهم شخصيتين متناقضتين تماماً الأولى: شخصية المستبد، الذى يبحث عن فرصة ليمارس استبداده هو الحاكم والثانية: شخصية الراضى بالاستبداد، القابل للاستعباد وهم الشعوب كما ذكرنا.

والأشد خطراً من ذلك أنه لا يوجد صراع فى أنفسهم بين هاتين الشخصيتين، كل ما فى الأمر أن كل شخصية تقوم بدورها حسب الظروف والمتاح.

ومؤسسات المجتمع المدنى، والأحزاب التى تعارض الحكومات المستبدة، تمارس الاستبداد داخل إطارها الإدارى، فترى زعيم أى حزب معارض لا يترك منصبه إلا بانقلاب دموى من أعضاء الحزب عليه أن استطاعوا ذلك وفى الغالب لا يستطيعون إلا فى القليل.

وأصبح الاستبداد والديكتاتورية هما من سمات المجتمع الضعيف.

العبقرية والذكاء في شخصية الحاكم الطاغية

الذكاء والتفوق والموهبة والابداع والعبقرية والابتكارية وما إلى ذلك من مفاهيم ومصطلحات الذكاء.

هو القدرة على النشاط العقلى التى لا يمكن قياسها مباشرة.

وأما الابتكارية فهى النشاط العقلى الإبداعى والأصيل الذى ينحرف عن الأنماط المعتادة والمألوفة والذى يؤدى إلى أكثر من حل واحد مقبول للمشكلة.

اعتقد الناس بأن الشخص المبدع لابد أن يكون مضطرباً فى حياته النفسية أو أن هناك تصرفات أو سلوكيات تصدر عنه غير متوافقة مع عامة الناس حتى أنهم ربطوا هذه التصرفات بين العبقرية والجنون.

والبعض من العامة أرجع ذلك إلى وجود اختلال فى العقل، مما ساعد على ترسيخ هذا الرأى والاعتقاد لدى البعض، وهو ناتج من إصابة بعض المبدعين والعباقرة والموهوبين عقلياً أو المتفوقين باضطراب عقلى فى الرسم أو النحت أو الأدب والفن أو العلوم أو الموسيقى والشعر والكتابة بأنواعها، لوجدنا هناك بعض مظاهر هذه السلوكيات غير الطبيعية، ولو تأملنا أيضاً فى دراسة أعمالهم ونتاجاتهم بكافة أنواعها لوجدنا أن السمة الغالبة هى الاختلاف عن السلوك العام لدى عامة الناس.

أما علماء النفس فى مجال التفوق العقلى والابتكارية فيرون عكس ذلك بقولهم بشكل عام بأن اضطراب الحياة النفسية والعقلية للعبقرى لا علاقة سببية بينه وبين العمل الإبداعى وبأن معظم المبدعين فى المجالات المختلفة هم من الأسوياء فى حياتهم النفسية وسلوكهم الاجتماعى وإن القلة فقط من

المبـدعين يتسـمـون بـأعـراض تدل على انحـرافهم بصورة أو أخـرى عن المجـال الطبيعى للحياة النفسية والعقلية.

وللعمل الإبداعى فى مثل هؤلاء أن يتـأثر فى موضوعه وفى طريقـة إنتاجه وفى زمن خلقه بالحالة النفسية أو العقلية لصاحبه.

ومن أمثلة ذلك ما يوصف به بيتهوفن بالغضب، وجوناثان سويفت بالسخط والنقمة، وفان جوخ بالعزلة والوحدة الكبيرة، وآميل برونت باليأس.

وهناك بعض السمـات الطاغية فى سلوك الشخصيات المبدعة الخـلاقة من خلال تعبيـرات معينة مثل: الشجـاعة فى طرح الرأى، السـمة المبدعـة فى الطرح الفكرى والأسلوب، ذو تفكير واضح، معظمهم متقلبون، متفردون، مشغولو البال، معقدون فى حين أن الأفراد العاديين أو أصحاب التفكير والقدرات الاعتيـادية يتميزون بشكل واضح عن المبدعين فى أنهم: متذوقون، أكثر ميلاً لمراعاة مشاعر وحقوق الآخرين، تقليديون، ميالون للمساعدة، متعاطفون، كسولون، مهملون، خجولون، مثبطون، ضعفاء مع شىء من الغباء.

فالسلوك الابتكارى وسمات التفوق العقلى والقدرات غير الاعتيـادية تظهر منذ مـرحلة الطفولة وهناك بعض المؤشـرات فى حياة الأطفال والأحـداث هى وجود مظاهـر واضحة على التخيل الواسع والذكاء مثل حب الاستطلاع ومعرفة الكثيـر من الحقائق عن الكون والخلق وتكوين الحيـاة فضـلاً عن كثرة الأسئلة والبـحث عن إجابة لهـا من الوالدين أولاً ثم الانشغـال بالبـحث عن آليات عـمل الكون أو صنعه.

فالأطفال والأحداث المبدعون لديهم الميل إلى الابتكار والانشغال بذلك على حساب النشاطات البريئـة التى يمارسها الأطفـال فى مثل أعمـارهم فى نفس المرحلة العمرية.

الشخصية المبـدعة الابتكارية المتفوقة لها قدرة خاصـة متميزة لحل المشكلة وإبداع الرؤية فى العمل الفنى وأسلوب حلها وطريقة إنتاج أعمال أصلية وأفكار

تتميز بالخلافة فى الرسم والشعر والرياضيات والكتابة والموسيقى وفى كل المجالات حتى إن نتاجهم الفنى والإبداعى يكون تام التكوين ويرقى إلى التفرد النوعى، هذه المقومات لا نجدها فى الإنسان العادى وإنما تكون لدى المبدع المتفوق حصراً ومن أهم العوامل الشخصية التى يمكن ملاحظتها لديه:

- الحس المفرط.
- المقدرة الفكرية التميزة.

والعبقرية حالة إنسانية فريدة متعددة الجوانب ومن الصعب الادعاء بإمكانية احتواء أبعادها فى مجموعة صغيرة من العناصر، وأهم هذه العناصر فى بنائها وهى البيئة، والوراثة، والشعور بالمسؤولية، والزمن.

جاء فى لسان العرب لابن منظور أن العبقرية مشتقة من وادٍ فى البادية كثير الجن يقال له عبقر.

ثم نسب العرب إلى ذلك الموضع كل شىء تعجبوا من حذقه وعجيب صنعته فقالوا عنه: عبقرى وفى المثل كأنه جن عبقر!!

وهذا الاشتقاق يذكرنا بالتفسير الميتافيزيقى القديم الذى يدعى أن العبقرى نتيجة للاتصال بالجن والأرواح وممارسة السحر.

وفى علم النفس فهى تمازج بين الذكاء والموهبة والجرأة فى اقتحام مجالات لم يسبق لأحد اقتحامها، فالعباقرة هم دائماً القادة والرواد فى تعريف الناس بحقائق وإنجازات لم تطرق من قبل.

وهم من هذه الناحية يختلفون عن العامة ممن يؤدون الأعمال بشكل روتينى مكرر منتظرين من يقدم لهم وسيلة جديدة أفضل.

فالعبقرية تؤدى إلى تمازج عنصرى البيئة والوراثة ورغم أن معظم العلماء يجدون أن الخلاف لايزال قائماً حول تغليب دور أحد العاملين.

فنيتشة وجولتن مثلاً يعتقدان أن العوامل الوراثية هى حجر الأساس فى ظهور مستواها، وقد استدلا على ذلك بحقيقة أن معظم العباقرة ظهروا فى اسر وجد فيها عباقرة آخرون.

ولكن العلماء ممن يغلبون دور البيئة يستخدمون الدليل نفسه لصالحهم ويقولون: إن تلك الأسر وفرت لأبنائها بيئة تعليمية واجتماعية استثنائية أهلتهم للوصول للعبقرية.

إلا أنه بالإضافة إلى عاملى الوراثة والبيئة هناك عنصران آخران يجب أن يتوفرا لظهور العبقرى هو العنصر الثالث، الرغبة وإدراك المسؤولية والعنصر الرابع، الزمن المناسب وتوفر قدر من الشهرة فالرغبة فى الانتساب لدى المبدعين وإدراك العبقرى لحقيقة مسؤوليته فجميع العباقرة كانوا يدركون حقيقة، عظيم الأهمية فى بناء الشخصية تفوقهم ويؤمنون بمسؤولياتهم تجاه ما أخلصوا لأجله.

وقبل الحديث عن العنصر الأخير نشير إلى أنه بتوافر العناصر الثلاثة السابقة قد اكتمل، فالاستعداد الوراثى والبيئة المناسبة يكون مثلث بناء وإدراك المسؤولية، كافية لإيجاد شخصية المبدع واكتمالها من الداخل، والعنصر الأخير مهم فى تسهيل مهمة العبقرى واكتمال صورته من الخارج.

بمعنى أنه قد تتوافر للعبقرى جميع مقومات الإبداع ولكنه لم يصب قدراً من الشهرة والانتشار وبالتالى من الصعب أن يعرف كعبقرى، فعبقرى غير معروف يشبه رياضياً أو فناناً توافرت له جميع عناصر التفوق ماعدا زمان غير مناسب.

فالمتأمل فى إنجازات العباقرة يدرك أنهم لو تأخروا فى إحدى إضافاتهم سنوات قليلة لفقدت تلك الإضافة أهميتها، ولو ظهروا بها قبل وقتها بسنوات قليلة لما أدرك أهميتها أحد، ولقيل عن أحدهم إنه سبق عصره.

ومن هنا تتقابل سمات شخصية العبقرى والحاكم الطاغى المستبد، من حيث عوامل البيئة والوراثة والزمن المناسب والبطانة التى سوف تستفيد منه والعيوب المستضعفة وامتلاكه للقوة الطاغية، فهناك شعرة لا ترى بين العبقرية والجنون الذى يعتقد أن الطاغية يصاب به فى نهاية حكمه المستبد ولكنه ليس جنوناً عادياً وإنما هو جنون العظمة.



2

الإسلام يعلو ويسود

- دخول المغول التتر فى الإسلام إيمان أم استسلام.
- شخصيات إسلامية فى صفوف المغول المحاربة للمسلمين والإسلام.

دخول المغول التتر
فى الإسلام إيمان أم استسلام

لايزال اسم المغول التتر يثير الرعب ويذكّر الناس بجنكيزخان وهولاكو وما ارتكباه فى حق البشرية من مجازر وهدم للحضارات حتى وصفهم ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ بأنهم أعظم كارثة حلت بالإنسانية.

ويظل كابوس المغول التتر يثير الرعب فى النفوس حتى قرب قيام الساعة حين يأذن الله بخروج آخرهم يأجوج ومأجوج وهم من علامات الساعة الكبرى.

لقد كانت خروجاتهم على مر التاريخ كثيرة ومتعددة قبل الميلاد وبعد الميلاد.

ويجمع المؤرخون أن الأرض والبيئة والمناخ كانت من العوامل التى لعبت دوراً أساسيّاً وهامّاً فى تكوين هؤلاء المغول الذين جمعهم «جنكيزخان» حوله وأقام بهم إمبراطوريته الشاسعة ومن بعده أولاده وأحفادهم ومنهم هولاكو وتيمورلنك بطل كتابنا هذا الذى سار على نهج أسلافه وبنى إمبراطوريته على جماجم بشرية.

لقد كوَّن البرد القارس والرياح العاصفة والشمس المحرقة من المناطق الجنوبية للمناطق التى ولدوا وعاشوا فيها، كوَّنت تلك الظروف رجالا أشداء لا يعرفون إلا القتال والقتل والعيش على صهوات الجياد وفى الخيام لا يعرفون المدن والحضارات، حتى اعتقد الناس فى كل العصور أن التتار المغول ليسوا مثل بقية البشر حتى قالوا إنهم ليسوا من نسل بنى آدم!!

وأصبح كل مغولى طاغية.

وعلل علم الاجتماع أسباب قيام هؤلاء البربر من المغول من تدمير الحضارات وتدمير المدن وقتل وذبح أهلها نتيجة طبيعية لظروف المعيشة التى

---

(١) اقرأ كتابنا «يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء، الناشر دار الكتاب العربى.

عاشها هؤلاء حتى أصبحوا حيوانات مفترسة فى هيئة بشر، وقد تميز تيمورلنك عن غيره من الطغاة المغول أنه كان يهدم المدن ثم يعيد بناءها على نمط جديد من صنع خياله أما هولاكو وجده جنكيزخان فكان يهدم المدن حجراً على حجر ويكتب لافتة تقول كان هاهنا مدينة كذا(١).

فقد خلف جنكيزخان أولادهم خاقانات المغول.

فهو الشخصية الأولى فى المغول وأكبر ملوكهم الذى قاد حملتهم الأولى سنة ٦١٧ هجرية فشملت أكثر بلاد المسلمين وكل بلاد القوقاز وروسيا، وقسماً من أوروبا الشرقية، وقسماً من الهند ويعتبر (نبى المغول) بل يطيعونه أكثر من طاعة الأمم لأنبيائها!

وقد وضع لهم شريعة سماها (ألياسة) فمشوا عليها فى حياته وبعد مماته وقد استكثر من الأولاد وأحاط نفسه بهالة من العظمة.

وأما أولاد جنكيزخان فقد ذكر فى مسالك الأبصار عن علاء الدين الجوينى، أنه كان له عدة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسرارى، وكان أعظم نسائه أوبولى من تيكى، ومن رسم المغل تعظيم الولد بنسب والدته، وكان له من هذه أربعة أولاد معدين للأمور الخطيرة هم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم، وهم توشى وجفطاى وهو أصغرهم، وأوكداى وأوتكين نويان، وأنه جعل موضعه نقطة دائرة ملكه وبنيه حوله كمحيط الدائرة.

فجعل ابنه أوكداى ولى عهده ورتبه لما يتعلق بالعقل والرأى والتدبير والولاية والعزل واختيار الرجال والأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها، وكان موضعه فى حياة أبيه حدود أيمك وقراباق، فلما جلس بعد أبيه على تخت الملك انتقل إلى الموضع الأصلى بين الخطا وبلاد الإيغور وأعطى ذلك الموضع لولده كيوك. وجعل لابنه أوتكين حدود بلاد الخطا، وعين لابنه الكبير توشى حدود بلاد الأيغور إلى سمرقند وبخارى ورتبه لتنفيذ النائبات والأمور والمقابلات وما أشبه ذلك.

(١) اقرأ كتابنا «جنكيزخان امبراطور الشر»، الناشر دار الكتاب العربى.

قال ابن عطا ملك الجوينى: وكان أولاده وأحفاده يزيدون على عشرة آلاف وذكر عن الشيخ شمس الدين الأصفهانى أن جنكيزخان أولد أربعة أولاد وهم جوجى وهو أكبرهم وكداى وطولى - تولى -.

كان جنكيزخان يرى أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسئوليات والاحتفاظ بدولته التى أسسها بحد سيفه، أن يقسم إمبراطوريته وهو على قيد الحياة بينهم، وذلك طبقاً للتقاليد المغولية.

فخص كل فرد من أفراد أسرته بعدد من القبائل (أولوس)، وجعل له موطناً (يورت) يشتمل على مساحة من البرارى تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعى، وأن يكون له من الخراج ما يكفى للإنفاق على بلاطه وعسكره.

وهذا الخراج تؤديه الشعوب التى خضعت للمغول فى الصين وتركستان وإيران.

وطبقاً للقانون المغولى (الياسا) يعطى الأب قبل وفاته قسماً من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه.

فكان نصيب جوجى وهو أكبر أبناء جنكيز، وكان يشرف على شئون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين.

وتسمى عادة تلك المنطقة بالقبيجاق، ويطلق عليها اسم «القبيلة الذهبية» (آلتون أوردو Golden Horde) نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبى، وكان غالب أهلها من الترك والتركمان.

ولما رحل جوجى قبل والده قرر جنكيزخان أن تكون تلك المناطق من نصيب حفيده «باتو» وهو ابن جوجى الذى اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث، والتعقل والرزانة التى أوصلته ليكون رأس بيت جنكيزخان، وظهر ذلك بوضوح عندما قام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش فى البيت الجنكيزى[1].

---

(١) انظر كتاب السلوك للمقريزى.

أما (الياسة) شريعة المغول التى وضعها جنكيزخان فقد ظلت قانوناً يحكمون بها حتى بعد إسلام أكثرهم بعد ذلك وجعلوها فوق القرءان الكريم!!

قال الذهبى فى تاريخه: (جنكيزخان، طاغية التتار وملكهم الأول، الذى خرب البلاد وأباد العباد، وليس للتتار ذكر نبله، وإنما كانوا ببادية الصين فملكوه عليهم وأطاعوه طاعة أصحاب نبى لنبى، بل طاعة العباد المخلصين لرب العالمين)!

أما عقيدتهم فقد قال علاء الدين بن عطاء ملك الجوينى: الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالى، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه يحيى ويميت ويغنى ويفقر ويعطى ويمنع، وأنه على كل شىء قدير، وإن منهم من دان باليهودية، ومنهم من دان بالنصرانية، ومنهم من طرح الجميع، ومنهم من تقرب بالأصنام.

قال: ومن عادة بنى جنكيزخان أن كل من انتحل منهم مذهباً لم ينكره الآخر عليه.

ثم الذى كان عليه جنكيزخان فى التدين وجرى عليه أعقابه بعده: الجرى على منهاج الياسا التى قررها، وهى قوانين خمنها من عقله وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً، بما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك، سماها الياسة الكبرى، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل فى خزانته، تتوارث عنه فى أعقابه، وأن يتعلمها صغار أهل بيته[1].

منها: أن من زنى قتل، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل، ومن بال فى الماء قتل، ومن أعطى بضاعة فخسر ثم أعطى ثانياً فخسر ثم أعطى ثالثاً فخسر قتل، ومن وقع حمله أو قوسه فمر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل، ومن وجد أسيراً أو هارباً أو عبداً ولم يرده قتل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنهم قتل.. إلى غير ذلك من الأمور التى رتبها، وربما دان به من

(١) انظر تاريخ جنكيزخان ـ علاء الدين بن عطا ملك الجوينى وهو من المسلمين الذين عملوا فى بلاط هولاكو وحكم بغداد بعد سقوطها فى أيدى المغول «تاريخ جهانكشاه».

تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم. ومن معتقدهم فى ذبح الحيوان أن تلف قوائمه ويشق جوفه، ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيمرسه حتى يموت، أو يخرج قلبه! ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح.

وإلى الآن مازالت طريقة ذبحهم فى منغوليا وهى الجمهورية المغولية الباقية حتى الآن.

وأما عاداتهم فى الأدب فكان من طريقة جنكيزخان أن يعظم رؤساء كل ملة ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلى الله تعالى.

ومن حال التتر فى الجملة إسقاط المؤن والكلف عن العلويين، وعن الفقهاء، والفقراء، والزهاد، والمؤذنين، والأطباء، وأرباب العلوم على اختلافهم، ومن جرى هذا المجرى.

ومن آدابهم المستعملة أن لا يأكل أحد من يد أحد طعاماً حتى يأكل المُطعم منه ولو كان المطعم أميراً والآكل أسيراً، ولا يختص أحد بالأكل وحده بل يطعم كل من وقع بصره عليه، ولا يمتاز أمير بالشبع من الزاد دون أصحابه بل يقتسمونه بالسوية، ومن اجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير إذن، وأن لا يدخل أحد يده فى الماء، بل يأخذ منه ملء فيه ويغسل يديه ووجهه، ولا يبول أحد على الرماد.

وكانوا لا يروت غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس.

ومن طرائقهم أنهم لا يتعصبون لمذهب ولا يتعرضون لمال ميت أصلاً، ولو ترك ملء الأرض، ولا يدخلونه خزانة السلطان.

ومن عاداتهم أنهم لا يفخمون الألفاظ ولا يعظمون فى الألقاب، حتى يقال فى مراسيم السلطان رسم القان بكذا، من غير مزيد ألقاب.

وأما حالهم فى طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال ولا لجاه، بل ذلك دأب لهم، حتى إنه إذا كان أمير فى غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب، متى أذنب ذنباً يوجب

عقوبة وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه، ألقى نفسه بين يدى الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل.

ومن طريقة أمرائهم أنه لا يتردد أمير إلى باب أمير آخر، ولا يتغير عن موضعه المعين له، فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، وإذا عرضوا آلات الحرب على أمرائهم وفوا فى العرض حتى بالخيط والإبرة.

ورعاياهم قائمون بما يلزمون به من جهة السلطان طيبة به نفوسهم. وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بما عليهم.

وقال المقريزى فى المواعظ والاعتبار (وشرط أن لا يكون على أحد من وُلد على بن أبى طالب ﷺ مؤنة ولا كلفة، وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء، ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤونة، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى».

واتفقت المصادر التى روت نص الياسة على فقرة إعفاء الأولياء ورجال الدين وأشباههم من الضرائب، وفى أولهم العلويون وقد كان بعضهم يعيش فى بلاد ما وراء النهر، المحاذية لبلاد المغول.

وكان للمغول علاقة مع شيخ صوفى له نفوذ كبير فى منطقة ما وراء النهر، هو سعيد بن المطهر الباخرزى، وكان يسكن بخارى ويعتقد به المسلمون ويحترمه التتار ومنهم جنكيزخان وابنه هولاكو.

وكذلك كانوا يحترمون تلميذه جد الجوينيين، وقد اصطحب هولاكو أحدهم فى غزوه لبغداد وجعله حاكم العراق وهو عطا ملك الجوينى، وكان جنكيزخان الوثنى الديانة هو ومن جاء بعده من أولاده وأحفاده يضمون فى بطانتهم ووزرائهم مسلمين أكثرهم من ذوى الأصول التركية وعلى رأسهم الوزير نصير الدين الطوسى والجوينى وغيرهما.

وكان جنكيزخان وذريته من المغول لا يتعصبون لدين حتى إنهم حين دخل

بعضهم فى الإسلام بعد انهزامهم فى عين جالوت لم يتركوا العمل بشريعة جنكيزخان «الياسا» ولهذا كفرهم فقهاء المسلمين فى زمانهم وحاربوهم.

حتى إن هولاكو سفاك الدماء وهو على ملة جده جنكيزخان حين أراد الزواج من أميرة مسلمة اشترطت عليه الإسلام نطق الشهادتين وظل على دين آبائه ومات عليه.

قال الذهبى فى تاريخه: قال لى الظهير الكازرونى: حكى لى النجم أحمد ابن البواب النقاش نزيل مراغة قال: عزم هولاكو على زواج بنت ملك الكرج، قالت: حتى تسلم.

فقال: عرفونى ما أقول. فعرضوا عليه الشهادتين فأقر بهما وشهد عليه بذلك الخواجا نصير الطوسى وفخر الدين المنجم.

فلما بلغها ذلك أجابت، فحضر القاضى فخر الدين الخلاطى فتوكل لها النصير وللسلطان الفخر المنجم، وعقدوا العقد باسم تامار خاتون بنت الملك داود بن إيوانى على ثلاثين ألف دينار. قال ابن البواب: وأنا كتبت الكتاب فى ثوب أطلس أبيض، وعجبت من إسلامه(١).

قالها بفمه لعدم تقيده بدين، ولم يدخل الإسلام إلى قلبه والله أعلم، قال قطب الدين: كان هلاكه بعلة الصرع فإنه حصل له الصرع منذ قتل الملك الكامل صاحب ميافارقين فكان يعتريه فى اليوم المرة والمرتين.

ولما عاد من كسرة بركة(٢) له أقام بجمع العساكر وعزم على العود لقتال بركة فزاد به الصرع ومرض نحواً من شهرين وهلك.

فأخفوا موته وصبروه وجعلوه فى تابوت ثم أظهروا موته، وكان ابنه أبغا غائباً فطلبوه ثم ملكوه، وهلك هولاكو وله ستون سنة أو نحوها وقد أباد أمماً لا يحصيهم إلا الله(٣).

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى.

(٢) بركة خان ابن عم هولاكو، وقد أسلم وحارب هولاكو وانتصر عليه.

(٣) اقرأ كتابنا هولاكو مارد من الشرق، الناشر دار الكتاب العربى.

ونقل جسمانه إلى قلعة تلا وبنوا عليه قبة، وخلف من الأولاد سبعة عشر ابناً سوى البنات وهم: أبغا، وأشموط، وتمشين، وبكشى، وكان بكشى فاتكاً جباراً، وأجاى، ويستز، ومنكوتمر الذى التقى هو والملك المنصور على حمص وانهزم جريحاً، وباكودر، وأرغون ونغابى دمر، والملك أحمد.

وقد دخل أحفاد هولاكو فى الإسلام ظاهريّاً واستمروا فى حروبهم لأهله أيضاً.

أما بركة خان بن جوجى ابن عمه فقد كان أول من أسلم ومن تبعه وحارب هولاكو ودافع عن الإسلام وتحالف مع المماليك المسلمين فى الشام ومصر وكانت له صولات وجولات فى الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن ديار الإسلام.

ونخلص إلى أن هناك طائفة كبيرة من المغول التتر أسلمت وحسن إسلامها ودافعت عن الإسلام والمسلمين ومنهم من كان إسلامهم ظاهريا ومنهم تيمورلنك ومن على شاكلته.

ومن المعلوم أن المغول والتتر من القبائل التركية وهى التى سكنت بلاد ما وراء النهر.

نهر جيحون المعروف الآن بأموداريا والممتد إلى حوض نهر سرداريا المعروف باسم نهر «سيحون» قديماً وهذه المناطق تعرف باسم تركستان، والتى قال عنها ياقوت الحموى فى معجم البلدان: تركستان هو اسم جامع لجميع بلاد الترك.

وقد أرسل إليهم الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك رسولاً ودعى ملكهم إلى الإسلام وعرض عليهم ألا يعيشوا على السلب والنهب، فقال له ملكهم بعد أن جمعهم: ليس فى هؤلاء خياط ولا إسكاف ولا حجام ولا فلاح فإذا أسلموا والتزموا شروط الإسلام فمن أين يأكلون؟

وبالتالى رفض دعوة الخليفة الأموى لهم بالإسلام.

ولكن المسلمين الأوائل منذ عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﵄ قد قاموا بفتح بلاد التركستان ودخل أهلها فى الإسلام فيما عدا قبائل البدو

المغول الذين ظلوا على همجيتهم حتى وحدهم جنكيزخان فيما بعد.

وتقترب مساحة بلاد التركستان إلى نحو خمسة ملايين كيلو متر مربع وتنقسم إلى قسمين: تركستان الشرقية وتخضع للصين وتركستان الغربية وهى خمس جمهوريات أوزبكستان وقازاقستان وطابكستان وتركمنستان وقرغيزيا، بالإضافة إلى مدن كثيرة مثل بخارى وسمرقند وقد خرجت تلك المدن الكثير من العلماء والمسلمين الأعلام.

وقد انتشر الإسلام قبل جنكيزخان فى قبائل «التغرغر» الذين أسسوا دولة «القراخانيين»، وكانوا على حدود القبائل المغولية التى وحدها جنكيزخان ثم الامبراطورية الخوارزمية وهى من منطقة إقليم التركستان الشمالى الغربى وهى من أوائل الإمبراطوريات التى غزاها جنكيزخان وضمها إلى مملكته وإمبراطوريته الكبرى[1].

وأما المغول وقبائل المغول فلم تدن بالإسلام إلا بعد هزيمتهم فى عين جالوت حين اعتنق الإسلام أحد أحفاد جنكيزخان وهو الأمير بركة بن جوجى كما ذكرنا من قبل.

فقد كان «جوجى» ابن جنكيزخان والذى قتل فى حياة أبيه من المحبين للإسلام هو وزوجته وكذلك ابناه «باتو» و «بركةخان» ولكن الأخير هو الوحيد الذى أعلن اعتناقه لدين الإسلام فى عهد هولاكو وبعد وفاة أخيه «باتو» استطاع أن يجعل البلاد التى تحت حكمه تدخل فى دين الله أفواجاً وقد أسلم بركة على يد الداعية سيف الدين باخرزى فى بخارى.

وكان جغتاى بن جنكيزخان وهو الابن الثانى له أكثر أولاده عداءً للإسلام والمسلمين وأشدهم التزاماً بقوانين أبيه جنكيزخان.

وكعادة الغزاة حين يدخلون أى بلد محتلين لها ينضم إليهم بعض السياسيين وهم طائفة المنافقين لكل حاكم أو أمير سواء كان وطنيا أو أجنبيا

(١) اقرأ «جنكيزخان إمبراطور الشر» ففيه المزيد عن غزوات هذا الطاغية لبلاد التركستان وغيرها، الناشر دار الكتاب العربى.

محتلا كما يحدث فى العراق الآن حدث مثله فى الماضى البعيد حين سقطت بغداد فى أيدى المغول عام ٦٥٦هـ.

فقد تحالف الوزير ابن العلقمى مع العدو المغولى وشجع هولاكو على غزو دار الخلافة رغم كونه وزيراً للخليفة العباسى.

وأيضاً من العلماء والسياسيين الذى تعاونوا مع المغول وكان.وزيراً لهولاكو من الترك نصير الدين الطوسى وهو من أقرب الوزراء والمعاونين لهولاكو الذى توجه فى ٦٥٥هـ لاحتلال بغداد لكنه كان متردداً فى ذلك لأن أحد المنجمين حذره من عواقب مهاجمة خليفة المسلمين لكن نصير الدين الطوسى فند كلام ذلك المنجم وقوى عزم هولاكو لإسقاط الخلافة العباسية.

وعن حقيقة الدور الذى قام به الطوسى لإسقاط الخلافة العباسية والانتقام من أهلها يقول ابن القيم رحمه الله: «لما انتهت النوبة إلى نصير الطوسى وزير الملاحدة وزير هولاكو شفى نفسه من أتباع الرسول ﷺ وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شقى إخوانه واستشفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة.

كذلك قام الطوسى باستمالة الوزير ابن العلقمى وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله وحسن له خيانته والتعاون مع المغول وعن خيانة ابن العلقمى يقول الذهبى رحمه الله فى ترجمة ابن العلقمى: «الوزير الكبير والمدبر المبير مؤيد الدين ابن العلقمى البغدادى كان فى قلبة غل على الإسلام وأهله فأخذ يكاتب التتار ويتخذ عندهم يداً ليتمكن من أغراضه الملعونة وهو الذى جرأ هولاكو وقوى عزمه على المجىء وقرر معه لنفسه أموراً انعكست عليه وندم حيث لا ينفع الندم.. ولى الوزارة للتتار على بغداد مشاركاً لغيره ثم مرض ولم تطل مدته مات غما وغبناً.. حتف أنفه وماذاك إلا ليدخر له النكال فى الآخرة.

وفى شهر محرم من سنة ٦٥٦هـ أحاطت الجيوش المغولية بقيادة هولاكو عاصمة العباسيين

على أية حال فإنه فى اليوم الرابع عشر من شهر محرم خرج ابن العلقمى من بغداد لمقابلة هولاكو بحجة ترتيب أمور الصلح وكان ينهى الناس عن رمى السهام على المغول ويقول: «سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا هذا وعساكر المغول يبالغون فى الرمى.

وفى اليوم الحادى والعشرين من المحرم تمكن المغول من الصعود على سور المدينة.

وفى اليوم السابع والعشرين من المحرم عاد ابن العلقمى من عند هولاكو وقال للخليفة: إن هولاكو يرغب فى مصاهرتك ويريد أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر وسيبقيك على منصبك ولا يريد ألا أن تكون هذا لأن فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد والمصلحة أن يخرج مولانا إليه.

واستطاع الوزير الخائن أن يقنع الخليفة البائس بهذا الكلام المعسول، خرج المعتصم بالله فى جمع من الأعيان للقاء هولاكو وأما من تأخر عن الخروج فقد تكفل ابن العلقمى بإقناعهم بالخروج لحضور عقد قران ابن الخليفة فخرج قرابة السبعمائة وقيل: ثلاثة آلاف من الأعيان قتلوا جميعاً خارج بغداد.

وفى اليوم الرابع من شهر صفر دخل هولاكو بغداد بصحبة الخليفة.

وذكر الذهبى أنه كان قد مشى حال الخليفة بأن يكون للتتار نصف دخل البلاد وما بقى شىء أن يتم ذلك وإنما الوزير ابن العلقمى قال: ما هذه مصلحة والمصلحة قتله وإلا ما يتم ملك العراق.

عند ذلك عزم هولاكو على قتل الخليفة وعن كيفية قتله يقول الذهبى: وقتلوا الخليفة خنقاً وقيل غموه فى بساط حتى مات والأشهر أنه رفس حتى خرجت روحه.

بعد ذلك قتلوا أبا العباس أحمد الابن الأكبر للخليفة ثم أبا الفضل عبدالرحمن وهو الابن الأرسط للخليفة وأما ولد الخليفة الأصغر مبارك وبنات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم فإنهم لم يقتلوا بل أسروا وأخذهم المغول معهم

إلى بلاد العجم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وعن فاطمة ابنة المستعصم يقول الذهبى: ماتت فى سنة ثمان وخمسين وستمائه غريبة أسيرة ببخارى فى دار الشيخ شرف الدين الباخرزى استنقذها من العدو.

وبعد قتل الخليفة قاموا بقتل أعمام الخليفة وأنسابه عن آخرهم ولم يكتف المغول بذلك تجاه بنى العباس بل دخلوا مقابر خلفاء بنى العباس ونبشوا قبور الخلفاء.

ومن الأتراك الذين تعاونوا مع المغول من المسلمين الوزير محمود الخوارزمى الذى أثنى عليه المؤرخون لإعادته بناء ماهدمه المغول من ديار المغول.

وقد وصف ابن الفوطى فى كتابه «مجمع الآداب» محمود ديلواج بما يلى: فخر الدين أبو القاسم محمود بن محمد يعرف بيلواج الخوارزمى وزير الخاقان أوكداى بن جنكيزخان من أعيان دولة جنكيز خان ولم يتول محمد يلواج أى منصب فى زمن جنكيز خان وهو من العظماء والوزراء فى هذا الزمان وعليه مدار الملك فى المشرق وإليه تدبير ممالك تركستان وبلاد الخطل وماوراء النهر وخوارزم.

وكان مع هذا الحكم والدهاء كاتباً سديداً يكتب بالمغولية والإيغورية والتركية والفارسية ويتكلم بالخطائية والهندية والعربية وكان فى غاية الفهم والذكاء والمعرفة.

ووصفه جمال قرشى المؤرخ بأنه: «أعدل وزراء الخواقين ضابط الممالك وحارس أهل الإسلام من المهالك ويقول عنه: «غمرت البلاد بيده وانتعشت البلاد بعدله».

وقد أثنى المؤرخون المسلمون ومنهم الجوينى على محمود يلواج وابنه مسعود الذى تولى بعده الوزارة وكيف استردت البلاد فى عهدهما رخاءها السابق وبلغت بخارى بعد خرابها شاواً بعيداً من الرقى والحضارة.

وقد كان لمحمود يلواج فضل كبير فى تجنيب المسلمين كثيراً من المهالك والمجازر التى كان يهم بها جغتاى بن جنكيزخان والذى كان يحقد على المسلمين حقداً شديداً.

وقد سنحت الفرصة لجغتاى لإقامة المذابح للمسلمين عندما ثار أهل بخارى ومن حولها بقيادة شخص صوفى يدعى تارابى الذى رأى من الواجب طرد المغول من بخارى وعندما قتل فى المعركة انهزم أنصاره وأراد المغول بقيادة جغتاى إبادة المسلمين وتخريب بخارى مرة أخرى إلاأن محمود يلواج استطاع أن يوقف جغتاى بإصدار أمر من القاآن الأعظم أوكداى بالعفو عن أهل بخارى ودخولهم فى طاعته مرة أخرى.

وقد استطاع محمود يلواج أن يتقرب إلى أسرة جوجى بن جنكيز خان أيضاً واستطاع أن يقنع أرملة جوجى بأن يتولى المسلمون تربية ابنها الأصغر الذى تسمى باسم بركة خان.

ويقول الجوزجانى المؤرخ إن جوجى نفسه قبل وفاته عهد بتربية ابنه الأصغر إلى المسلمين ويتولى تربيته أحد العلماء الأتقياء فى خجند «أوزبكستان اليوم».

وقد قرأ بركة خان القرآن الكريم وتعلم تعاليم الإسلام منذ كان صبيا فى العاشرة من عمره ولذا أصبح بركة على المسلمين عندما تولى الحكم فى الأوردا «القبيلة» الذهبية «وهى إحدى أهم قبائل المغول» بعد وفاة أخيه الأكبر باتو الذى كان أيضاً متعاطفاً مع المسلمين إلى حد ما وقد استمر حكم بركة خان من عام ٦٥٤ ـ ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٦ ـ ١٢٦٧م وانتشر الإسلام فى القبيلة الذهبية فى عهده انتشاراً واسعاً ولم يسمح لأحد بأن يأكل الخنزير فى معسكره.

وتحول أغلب جنوده وضباطه إلى الإسلام امتد سلطان القبيلة الذهبية إلى روسيا وحوض نهر الفولجا الذى أصبح نهراً إسلاميا فى عهد خلفائه وحكم خلفاؤه موسكو وبولندا وأقاموا مدينة قازان المشهورة ثم أقاموا مدينة استراخان «الحاج طرخان» شمال بحر قزوين على نهر الفولجا وكانت حاضرتهم مدينة

السرا أيضاً على ضفاف نهر الفولجا ولم يكن أمير موسكو يتصرف إلا بعد أن يأذن سلطان قازان واستمر ذلك مائتى عام كاملة.

وفى عهد محمود يلواج شيدت كثير من المعاهد والمدارس العلمية وقد قام ابنه مسعود من بعده بنفس سياسة والده الحكيمة.

وقد أشاد المؤرخون بمدرسة مسعود ببخارى والمدرسة الخانية التى شيدت على نفقة أرملة تولوى الملكة سور فقتلى بيكى وقد استغرب المؤرخ الروسى الشهير بارتولد من نفوذ مسعود بن محمود يلواج على الملكة سوربيكى مما جعلها تتفق نفقة ضخمة على مدرسة إسلامية بينما كانت هى نفسها نصرانية.

وقد أقام مسعود مثل والده العديد من المدارس فى أرجاء البلاد منها المدرسة المسعودية بكشغر وهى الآن فى التركستان الشرقية والمعروفة باسم سينكيانغ وتولى الشاعر الفقيه الصوفى سيف الدين باخرزى أمر هذه المدرسة كما تولى من قبل مدرسة كبيرة فى بخارى.

وهكذا أسهم فعل محمود يلواج فى إسلام طائفة كبيرة من المغول وأحفاد جنكيز خان وخاصة بركة خان الذى لعب دوراً هاما فى التاريخ الإسلامى.

■ ■ ■

إسلام القبيلة الذهبية المغولية
وبركة خان حفيد جنكيز خان
والسلطان أوزبك خان

أطلق على أولاد جوجى بن جنكيز خان والأراضى التى أعطاهم إياهم الجد جنكيز خان بالقبيلة الذهبية وحدودها بلاد القوقاز وشمال بحر قزوين وجنوب روسيا.

وكانت بلاد أواسط آسيا وبلاد ما وراء النهر تحت حكم أولاد جغتاى ابن جنكيز خان.

وكان أول من أسلم الأمير بركة خان بن جوجى وتبعه معظم القبيلة الذهبية ويلقب بركة بأبى المعالى ناصر الدين بعد إسلامه وكان إسلامه عقب عودته من عاصمة التتار «قرة قورم» فى منغوليا الآن بعد حضوره اجتماع المغول أو قادة المغول لإنتخاب مانكو بن تولوى خاناً أكبر على قبائل المغول وكان إسلامه عام ٦٤٨هـ وكان أخوه باتو زعيماً للقبيلة الذهبية ثم تولى بركة زعامة القبيلة عام ٦٥٣هـ عقب وفاة أخيه.

هو بركة خان بن جوجى بن جنكيز خان وهو أحد سبعة أبناء لجوجى وهم باتو وأوردا وشوبان وبركة وجمتاى وبركجار وتوقاتمير وكان الابن الأكبر باتو قد ورث منصب أبيه وأصبح زعيماً للقبيلة الذهبية والتى تعد أولى قبائل التتار إسلاماً وأكثرها تعاطفاً وتأدباً مع المسلمين.

وبسبب تعاطف باتو مع المسلمين فى بلاده أخذ النصارى خاصة الرهبان والقساوسة فى بلاد المغول فى تحريض الزعيم الكبير للمغول كيوك بن أوغطاى لمحاربة باتو قبل أن ينتشر الإسلام فى كل ربوع الشمال.

وتوفى باتو سنة ٦٥٠هـ وخلفه من بعده فى رئاسة القبيلة الذهبية ابنه حرتق الذى لم يعش طويلاً حتى توفى وانتقلت الرئاسة لعمه بركة خان وذلك سنة ٦٥٣هـ.

دخل بركة خان الإسلام وكان من قبل محبا ومتأثراً بالإسلام بسبب امرأة أبيه «رسالة» وقد التقى بركة خان فى مدينة بخارى مع أحد علماء المسلمين واسمه نجم الدين مختار الزاهدى وكان بركة عائداً لتوه من زيارة عاصمة المغول «قرة قورم» وأخذ بركة فى الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة فطلب بركة منه أن يؤلف له رسالة تؤيد بالبراهين رسالة الإسلام وتوضح بطلان عقائد التتار والتثليث وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام.

فألف الزاهدى الرسالة ودخل بركة خان الإسلام إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة فى نصرة هذا الدين.

لم يكن دخول بركة خان الإسلام كدخول آحاد الناس بل دخل الإسلام بطلاً ملكاً سلطاناً لقبيلة مغولية والمغول وقتها هم الكابوس المفزع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على نفس المستوى الفائق من المسئولية والقيادة.

وتحول هذا السلطان الوثنى إلى جندى من أخلص جنود الإسلام شديد الحب والتفانى فى نصرة الدين وأهله حيث ضرب أروع الأمثلة فى الولاء والبراء وهذه طائفة من أهم أعمال بركة خان فى نصرة الإسلام.

بعدما أعلن بركة خان إسلامه كان أول ما فعله أن أرسل ببعثته للخليفة العباسى المستعصم ببغداد وهذا الإجراء رغم أنه بسيط وبه كثير من الشكلية لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له أى نفوذ حقيقى إلا على مساحة ضيقة من الأرض إلا أنه يعطى صورة واضحة جلية نحو ولاء بركة خان لسلطان المسلمين وانطوائه تحت جماعة المسلمين.

وبعد أن اعتلى بركة خان رئاسة القبيلة الذهبية أخذ فى إظهار شعائر الإسلام وقام بركة خان بإكمال بناء مدينة سراى وهى مدينة سراتوف الآن فى روسيا على نهر الفولجا وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية وبنى بها المساجد والحمامات ووسعها جدا حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها وجعلها على السمت الإسلامى الخالص.

وحين بدأ هولاكو فى الإعداد لغزو بغداد وصلت الأخبار إلى بركة خان التهبت مشاعره وأسرع إلى أخيه باتو وألح عليه فى منع الهجوم على المسلمين وقال له إننا نحن الذين أقمنا مونكو خاناً أعظم وما جزاؤنا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء فى أصحابنا ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ملك الخليفة وهو صاحبى وبينى وبينه مكاتبات وعقود ومودة وفى هذا ما لا يخفى من القبح.

وبالفعل اقتنع باتو تماماً بكلام أخيه وبعث إلى هولاكو يكفه عما ينوبه من قتال المسلمين وبالفعل أجل هولاكو الهجوم على المسلمين حتى وفاة باتو ثم عاد للغزو فناصبه بركة العداء والحرب حتى آخر أيام هولاكو.

ودخل بركة فى حلف مع المماليك الذين بهروا العالم عندما انتصروا على التتار فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وكثرت المراسلات والاتصلات بينه وبين السلطان بيبرس وكان لها أثر كبير فى توجيهه لحرب هولاكو.

وبالفعل اتفق بركة خان وبيبرس على محاربة هولاكو وكتب بركة خان برسالة إلى بيبرس يقول له فيها قد علمت محبتى للإسلام وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من الناحية الأخرى حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد.

وتوثقت العلاقة بينه وبين السلطان بيبرس بزواج الأخير من ابنة بركة وأثمر الزواج عن ابن هو السلطان السعيد.

ولم يكتف بركة خان بمناصرة المسلمين فقد انقلب حرباً ضروساً على

التتار الوثنيين عموماً وعلى هولاكو خصوصاً حيث لم ينس بركة خان ما فعله هولاكو بالخلافة العباسية أبداً عندما اكتسح هولاكو بجحافله بغداد.

فقد حاول بركة خان بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذى ينذر بمحو الإسلام من الوجود ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة هولاكو لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للتتار والذى قد وافق على الهجوم على بغداد.

فأخذ بركة خان فى اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد هولاكو ووجد ضآلته فى مسألة الغنائم حيث كان من عرف جنكيز خان القديم أن أسرة جوجى لها ثلث الغنائم التى يحصل عليها التتار جميعاً فى أى معارك يخوضونها.

وبالقطع لم تكن الغنائم دافعاً لـ «بركة خان» فأرسل رسلاً من طرفه وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على هولاكو فى السؤال وبالفعل نجحت الحيلة واستتشاط هولاكو غضباً وقتل رسل بركة خان وسير جيشاً لمحاربة بركة خان فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة وذلك سنة ٦٦٠هـ.

فعاود الهجوم مرة أخرى بجيش أكبر فانهزم جيش بركة خان وكان يقوده أحد قواده واسمه لوغاى فأراد هولاكو أن يجهز بالكلية على بركة خان فأرسل جيشاً جراراً فيه معظم جنوده يقودهم ابنه أباقا فخرج لهم بركة خان بنفسه على رأس الجيش ومزق جيش هولاكو شر تمزيق سنة ٦٦١هـ فى منطقة القوقاز ولم ينج منهم سوى القليل.

فقد استغل بركة خان خروج الخان الأعظم مونكو لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخوه قوبلاى خان وترك أخاه الآخر ارتق بوكا مكانه لتسيير الأمور لحين عودته فاستغل بركة خان وفاة ماتغوا فى الطريق لإثارة الفتنة بين أرتق بوكا وقبلاى حيث اتفق الجند والأمراء على تولية قبلاى فأرسل بركة خان إلى أرتق بوكا بقوة عسكرية لمنازعة أخيه قبلاى على منصب الخان الأعظم وحرض أيضاً أسرة أوقطاى خان على مساعدة أرتق بوكا.

ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٥٨هـ وذلك قبل معركة عين جالوت بقليل مما جعل هولاكو يعود مسرعاً من الشام لفض النزاع.

واستمرت الحروب عدة سنوات وكان بركة خان فى نفس الوقت يقنع ويحث كثيراً من جنود هولاكو بالشام على الدخول فى الإسلام والانضمام إلى جيش بيبرس وبالفعل أقنع الكثيرين منهم وتحولوا إلى حرب هولاكو.

أما هولاكو فوجد أن كل البلايا والمعارك التى حدثت له وللتتار جميعاً كان سببها بركة خان فاشتد غيظه وحقده على بركة خان وحاول محاربته عدة مرات ولكنه هزم شر هزيمة مما أشعل الغيظ فى قلبه حتى وصلت نيران غيظه إلى عقله وجسده فأصيب بجلطة فى المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده أباقا أمام بركة خان سنة ٦٦١هـ وظل يعانى من الصرع حتى هلك سنة ٦٦٣هـ.

فانتقم بركة خان للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذى دمر دولة الخلافة الإسلامية وسفك دم الملايين من المسلمين.

وبعد أن هلك الطاغية هولاكو من شدة الغيظ والحقد على ما جرى على يد بركة خان ورث مكانه ابنه أباقا وورث عنه أيضاً حقده وحسده على بركة خان خاصة أن بركة قد هزمه هزيمة كبيرة سنة ٦٦١هـ لذلك كانت محاربة بركة هى أولى خطوات وقرارات أباقا بن هولاكو.

وبالفعل أعد أباقا جيشاً جرارا لمحاربة بركة وأرسل بركة أولاً قائده أنوغاى ولكنه هزم وأصيب بسهم فى عينه وكان بركة خان يحب أنوغاى لإسلامه وجهاده معه فى كل موطن فخرج بركة خان بنفسه للقاء أباقا وفى نيته محاربة عدو الإسلام وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة التتار التى بدأت تتحول للإسلام شيئاً فشيئاً.

وفى الطريق أتاه اليقين وتوفى البطل العظيم مجاهداً مناصراً سنة ٦٦٥هـ هجرية بعدما قضى حياته الحقيقية خمس عشرة سنة فى خدمة الإسلام ومحبة المسلمين ومحاربة أعداء الإسلام حتى مات رحمه الله ولم يكن له أولاد

ولم يترك ذرية ولكنه ترك سجلاً حافلاً فى العمل للدين والفهم الصحيح لعقيدة الولاء والبراء حتى إن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس قد سمى ولده الأكبر بركة خان حبا فى شخصية هذا البطل العظيم والذى لا يعرفه معظم المسلمين الآن(١).

وقد كانت القبيلة الذهبية أسبق القبائل المغولية للإسلام وهى التى امتد نفوذها من أواسط بولندا فى الغرب حتى وسط سيبيريا فى الشرق ومن المحيط المتجمد الشمالى حتى أذربيجان وجنوب خوارزم وقد كان بركة خان بن جوجى بن جنكيز خان «٦٥٤ ـ ٦٦٤هـ/ ١٢٥٦ ـ ١٢٦٦م» أول حكام هذه الدولة اعتناقاً للإسلام.

وبعد وفاة بركة خان ولى الأمر من جديد خانات مشركون ولم يستقر الإسلام نهائياً فى دولة القبيلة الذهبية إلا فى عهد السلطان أوزبك خان وهو غياث الدين محمد بن طغرلجى بن منكوتيمور بن توخان بن باتوين بن جوجى ابن جنكيز خان الذى وصف عند تولية عرش السلطنة بأنه شجاع صالح لأعباء الملك ومباشرة أمور السلطنة.

وقد من الله على أوزبك خان باعتناق الإسلام حوالى سنة ٧٢٠هـ ـ ١٣٢٠م وحسن إسلامه فكان محافظاً على العبادات يصلى مع الناس متردداً على الفقراء مقرباً للعلماء.

وقد عارض إسلامه كثير من أهله وعشيرته من التتر لكنه لم يتردد وأصر عيل ما أقدم عليه بل تحول إلى راع لهذا الدين شديد الحماس لنشره.

وبلغت هذه الدولة فى عهد السلطان أوزبك أوج قوتها وحمت حدودها التى سبقت الإشارة إليها وروضت أعداءها مما حدا بالرحالة ابن بطوطة الذى زار البلاد فى عهد هذا السلطان أن يصفه بقوله: وهذا السلطان العظيم الملك شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد فى جهادهم وبلاده متسعة ومدنه عظيمة وهو أحد الملوك السبعة الذين

(١) انظر موسوعة ويكيبديا الحرة ـ الإنترنت.

يعدون من كبراء الدنيا وعظمائها.

ورغم اتساع سلطنته وترامى أطرافها فقد دانت له دون مناوئ بما فيها الأقاليم الروسية التى دفعت لسلاطين القبيلة الذهبية الجزية لمدة طويلة بلغت قرنين ونصف قرن من الزمان بما فيها إمارة موسكو وصار أمراؤها أتباعاً للخان التترى.

وقد كان ينوب عن أوزبك فى البلاد الروسية نائب من المغول أو الأمراء الروس يراقب استقرار أمورها والتزامها بالطاعة ودفع الجزية.

وقد اعتبر بارتولد المستشرق الروسى المتخصص فى تاريخ هذه المنطقة دولة مغول القبيلة الذهبية أكثر الفروع المغولية استقراراً وأنها وصلت إلى درجة عالية من المدنية[1].

وقد عمل ذيوع السلطان أوزبك واتساع نفوذه على انتساب قبائل كبيرة ببلاد القوقاز وآسيا الوسطى إلى اسمه وهم المعروفون تاريخيا بشعب الأوزبك الذين يشكلون الآن مع غيرهم أهم الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى بعد انهيار الاتحاد السوفيتى.

وقد أعان السلطان أوزبك على بسط نفوذه وترسيخ هيبته جيش كبير العدد حضر من أمرائه عند السلطان فى العيد بحضور ابن بطوطة سبعة عشر أمير تومان والتومان عشرة آلاف فجموع عسكر وهؤلاء الأمراء مائة وسبعون ألفاً.

وقد مكنته هذه القوى من فرض الأمن والاستقرار فى ربوع مملكته الواسعة مترامية الأطراف يشهد على ذلك أيضاً ابن بطوطة الذى جال خلالها حيث يذكر أنه ورفاقه فى الترحال من أهل البلاد كانوا إذا نزلوا حلوا الإبل والخيل والبقر عن العربات وسرحوها للرعى ليلاً ونهاراً دون رعاة أو حراس وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة.

---

(١) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ـ بارتولد ـ ترجمة د. السعيد سليمان.

وكما مكنته قوة جيشه من إنقاذ سلطانه وهيبته على رعيته داخل حدود السلطانه هيأت له كذلك ترويض أعدائه إلى درجة كبيرة بالخارج.

وقد تمثل أقوى هؤلاء الخصوم فى طرفين هما: أباطرة بيزنطة وهؤلاء يبدوا أنه أظهر لهم من مقدرته ما دعاهم إلى مهادنته وتزويجه إحدى أميراتهم.

أما الفريق الثانى فهم أبناء عمومته الإيلخانيون بإيران والعراق والذين كانوا حتى بعد إسلامهم على عداء مع القبيلة الذهبية وحلفائها سلاطين المماليك بمصر والشام فى معظم الأحيان.

وكانت الدولة إضافة إلى كل ما سبق قد تمتعت برخاء اقتصادى رغم الطابع الصحراوى الغالب عليها ويرجع ذلك إلى النشاط التجارى البارز فقد انتشر فى مدن وموانئ هذه البلاد بعملاء تجاريين من مختلف الأجناس.

وكان جزء كبير من تجارة القبيلة الذهبية يتم مع المماليك المتحكمين فى عصب طرق التجارة العالمية بمصر والشام حينها.

وقد حظى العلماء بمنزلة طيبة فى هذه البلاد زمن أوزبك فكان يجلهم ويوقرهم وعمل هذا على بروز عدد كبير منهم فى عهده كأمثال الشيخ علاء الدين النعمان الخوارزمى رحل إلى دمشق سنة ٧١٨هـ ومنها للقاهرة وحج منها ورجع بعد أن طاف البلاد واجتمع بالفضلاء وحصل المنطق والطب وقد صار كبير أطباء البيمارستان بخوارزم.

والعلامة على بن أبى بكر على النسفى شرح قسماً من مفتاح العلوم للسكاكى وأتمه سنة ٧١٩هـ وأهداه إلى أوزبك خان.

ونجم الدين عبدالرحيم بن عبدالرحمن المعروف بابن النجام سنة ٧٣٠هـ طوف بالبلاد وكان فقيهاً طبيباً.

والشيخ برهان الدين إبراهيم البلغارى صاحب كتاب أصول الحسامى وغير هؤلاء كثيرون وما يؤكد كثرتهم أن أحد العلماء لقى السلطان أوزبك مسافراً

فسأله السلطان عن أحوال مدينة قريم ببحر القرم فأجاب: كنا نسمع أن بها ستمائة مفت وثلاثمائة مصنف وأنها بلدة معمورة بالعلم والصلاح.

واشتهر السلطان أوزبك بتحمسه الشديد لنشر الإسلام وحرصه على تحويل الأهلين إليه وقد أعان على ذلك التجار المسلمون الذين يجوبون هذه البلاد حاملين مع بضاعتهم أفكارهم التى يدعون الناس إليها عبر سلوكهم وأقوالهم ونمو الطرق الصوفية وانتشارها وكثرة أتباعها وحيوية نشاطها عبر ما يسمى بجماعات «الأخية الفتيان» أى الإخوة الفتيان التى لم تكن منقطعة للعبادة فقط بل كان لكل منهم حرفة يمتهنها كما شاركوا فى الجهاد ومد النفوذ الإسلامى.

ورغم حماسه الشديد لنشر الإسلام فإن المؤرخين غير المسلمين منهم يذكرون التسامح مع غير المسلمين من رعيته فقد منح رعاياه من المسيحيين الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية.

ومن أهم الوثائق التى تسترعى الانتباه فى هذا الصدد ذلك العهد الذى منحه لكنيسة القديس بطرس كبرى الكنائس الروسية سنة ١٣١٣م ومما جاء فيه من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم وغيرهم إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسيها بسوء ولا أن يستولى على شىء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها ولا أن يتدخل فى أمورها لأنها مقدسة كلها ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة ولكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم(١).

ولم يكن هذا المرسوم مجرد كلام إنشائى أجوف بل كان واقعاً معيشاً يؤكد هذا تلك الرسالة التى بعث بهاالبابا يوحنا الثانى والعشرون سنة ١٣١٨ إلى الخان أوزبك يشكره فيها على ما أظهره من عطف نحو رعاياه المسيحيين.

وفى مقابل هذا التسامح الوافر من قبل الحاكمين المسلمين فإن الرعية

(١) المصدر السابق.

غير المسلمة خصوصاً فى مناطق تكاثرها لم تكن تتنزه عند التعصب ضد المسلمين فعندما وصل ابن بطوطة إلى مدينة الكفا على القرم شمال البحر الأسود وكان معظم سكانها نصارى من أهل مدينة جنوة الإيطالية التجارية نزل بمسجد المسلمين وبعد ساعة سمع أصوات نواقيس الكنائس من كل ناحية ولم يكن قد سمعها قبل ذلك فهاله الأمر وأمر أصحابه أن يصعدوا إلى أعلى المسجد ويقرءوا القرآن الكريم ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فإذا برجل قد دخل عليهم فسلم عليهم وأخبرهم أنه قاضى المسلمين وأنه حين سمع الأذان خاف عليهم من الأذى رغم أن هذه المدينة كانت خاضعة لسلطان أوزبك.

هذه ممارسات حاكم ينتمى لعنصر من البشر موصوف بالهمجية والبربرية وهم التتار المغول كما أنه هو نفسه كان حديث العهد بالإسلام ومع ذلك تسامح إلى هذا الحد مع رعيته غير المسلمين متمشياً فى سلوكه مع روح عقيدة الإسلام الذى يقول قرآنه: ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى.

وهكذا فعل الإسلام بالمغول التتر الهمج ، فتلك تعاليمه السمحة التى تتسع لكل الطوائف والأديان المخالفة وهكذا كان تعامله مع الآخر أما الآخر فقد تدين بالتعصب المقيت كما تدين بوش الأمريكى بدين المغول الهمجى ففعل أكثر مما فعله هولاكو وجنكيزخان.

■ ■ ■



3

الأصول التاريخية لتيمورلنك

- القبائل المغولية والتركية التى ينتمى إليها تيمورلنك وانتسابه إلى جنكيزخان.
- الطبيعة القبيلة والمعيشية لقبائل المغول والتتار فى تكوين شخصية المغول وقادتهم.

القبائل المغولية والتركية
التى ينتمى إليها تيمورلنك
وحقيقة انتسابه إلى جنكيزخان

تيمورلنك أو تيموركوجان أو كوكان ابن ترغاى بن أبغاى يمت بصلة قرابة إلى ذرية جنكيز خان من ناحية الأم وليس من العصب.

ولد فى قرية خواجه إيلغار من أعمال كش وهى من مدن ما وراء النهر عام ٧٣٦هـ - ١٣٣٦م[1] لم يحمل لقب خان لعدم انتسابه إلى عائلة جنكيزخان من ناحية الأب وحمل لقب أمير وكوركان التى تعنى بلغة المغول الحسن الصهر لزواجه من بنات الملوك وهو مؤسس مملكة المغول الثانية والتى لم تستمر بعده كثيراً.

ويطلق الغربيون عليه اسم «تمور» «Thomor» أو تومورلنك «Thomr Lanch» وأيضاً «Timur» أو تامرلان «Tamar Lanc» ولقبه أمير جورجان أو صاحب قيران «Sahit Quitan» سيد الكواكب السعيدة ويطلق عليه المؤرخون الفرس جورجان أو كوركان بمعنى الصهر للملوك.

وكان يدعى أيضاً تيموركركن أى المليح وتمور أو تيمور يعنى الحديد بلغة التتار وقد أضاف الفرس إلى اسمه لنك أى الأعرج بلغتهم ولم يعرف بهذا الاسم إلا بعد إصابته بالعرج فى إحدى قدميه فى سيستان عام ١٣٦٥م.

قيل إن الذى أطلق عليه اسم تيمور هو أحد المشايخ فى بلدته عقب ولادته حين احضر إليه أبوه كى يباركه وكان يقرأ فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (الملك: ١٦).

---

(١) ولد تيمورلنك فى شهر أبريل ١٣٣٦ الموافق شعبان ٧٣٦هـ.

فقال هو تيمور.

بعد تفكك الإمبراطورية المغولية التى أسسها جنكيز خان ودخول القبيلة الذهبية فى الإسلام وطوائف أخرى من طوائف المغول أيضاً عادت النزعة القومية للظهور والدعوة لعودة الإمبراطورية المغولية كما يحدث الآن من القوميين العرب الذين يدعون لعودة الحكم العربى على أساس غير دينى هذا ما فعله تيمورلنك الذى ينتسب إلى الإسلام مثل أمثاله فى العالم العربى.

وأصل تيمورلنك القبائل المغولية التى هى جزء من القومية التركية وكانت حروبه الأولى ضد أبناء عمومته من التتر والترك ثم من أبناء دينه الذى اعتنقه وهو الإسلام لقد هدم الكل من أجل ذاته.

وكما ذكرنا فإن جنكيز خان هو جده من ناحية الأم المنحدرة من صلبه من غير زوجته الأولى بورتارى.

ولكى ندرك حقيقة تلك الشخصية التى لا تتكرر إلا على فترات زمنية طويلة علينا أن ندرس البيئة والمعيشة التى أحاطت به وتربى فيها وكونت شخصيته السادية.

لقد كتب تيمورلنك مذكراته بنفسه وأشار إلى انتمائه إلى الجنس المغولى واتصال نسبه بجنكيز خان وأنه ينحدر من قبيلة برلاس التى تعود أصولها إلى القبيلة الأسطورية «كوريدجين» التى ينتسب إليها جنكيز خان والتى أخذت منها التسمية المغولية.

ورغم أن تيمورلنك كان مسلماً إلا أنه لم يطبق تعاليم وأحكام الإسلام فى دولته وإنما طبق قانون الياسا الذى وضعه جنكيزخان وهى شريعة وثنية وكان يدعى إنه شيعيا تارة وسنيا تارة أخرى حسبما تقتضى مصالحة فى الحكم وما يريد أن يصل إليه حتى إنه أدعى أنه ينتسب إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

وأما المغول وأصولهم التى ينتسب إليهم تيمورلنك فهم شعب بدوى ينقسم

إلى عدد من الطوائف والقبائل عديدة تسكن إقليم منغوليا الذى هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية.

وهذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة بل كانت قبائل وحشية ولم تكن لهم سابقة بمدنية وحضارة ولشدة بداوتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة ويرأسها رئيس يحمل لقب نويان تطيعه وتأتمر بأمره ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب إليها التعقيد يسعون إلى مناطق العشب والكلأ مصدر الحياة عندهم.

عاشت القبائل المغولية فى مستهل القرن السابع الهجرى «الثالث عشر الميلادى» فى هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبى بين بحيرة بايكال فى الغرب وجبال خناجان على حدود منشوريا فى الشرق وتكون الجبال المحيطة بها والتى أشهرها جبال خنجان حاجزاً منيعاً بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضى الباردة فى سيبيريا.

وكانت القبائل المغلوية فى ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتدة فى سور الصين العظيم جنوباً إلى بحيرة بايكال شمالاً وفى الجنوب الشرقى لهضبة منغوليا تقع صحراء جوبى التى ليست سوى سهل متسع مسطح أو متموج تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة إذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت فى بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر فى البحار وأدى ذلك إلى انعدام الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد إلا فى أماكن متفرقة.

وقد امتاز الشعب المغولى كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين حتى إننا نجد المغولى يكن لحرفة الزراعة كراهية شديدة على الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السهول الخصبة أحياناً إلا أنهم لم يحاولوا زراعتها بل كانوا يهاجرون فى فصل الصيف من السهول إلى الجبال ولا يتركونها إلا إذا انعدم العشب فيها وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع قطعانهم.

ورغم ذلك كانت هناك مناطق آهلة بالسكان حيث كانت تقوم الزراعة على أطرافها ويسكنها طوائف بدوية وأخرى حضرية تسكن القرى ولذلك كان مستوى المغول الحضارى على درجات متفاوته.

وأهم المناطق التى سكنها المغول فى هذا الزمان.

حوض بحيرة (بالخاش) ويوجد فى وسطه جبال «تيان شان» «وكوين لن» وهضبة التبت وبحيرة آرال ويعيش فيها طوائف مختلفة من الجنس الأصفر والأتراك.

البلاد الواقعة بين جبال سايان والتاى وخينكان وتعد من الناحية الجغرافية من أقسى النواحى معيشة فى كافة أنحاء آسيا المركزية والشرقية وتعيش فيها طوائف من الجنس الأصفر من المغول والتتار.

وأما مناخ هضبة منغوليا فإنه مناخ قاس جدا يندر وجوده فى أى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة والبرودة وفى جفافه معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء إذ يتجمد الماء فى المنخفضات حتى شهر مايو من كل عام.

ويمكن أن يرى الجليد على أوانى الشرب فى شهر أغسطس كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهى.

وتبلغ البرودة فى فصل الشتاء فى بعض الجهات ٥٨ درجة تحت الصفر.

وفى فصل الصيف تبلغ درجة الحرارة أحياناً ٦٠ درجة مئوية.

ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح تهب فى معظم أيام السنة شديدة عاتية حتى إنها تحمل معها الحصى وتنقله إلى مسافات بعيدة مما يجعل مواجهتها مستحيلة.

يقول المؤرخ هوارث: «إن المناخ بمنغوليا لا يثبت على حال واحدة حتى فى أواسط الصيف وأن الرعد والبرق الذى يودى بحياة الكثيرين لا يكاد ينقطع والثلج يسقط بكميات وفيرة والأعاصير باردة الريح شديدة الهبوب إلى حد

يصعب معها بقاء الرجل على سرجه[1].

الظروف الجغرافية والمناخية لمنغوليا قد جعلت منه إقليماً قفراً لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة الممطرة فى فصل الصيف علاوة على البرود الزائدة فى فصل الشتاء.

وأشهر القبائل المغولية التى انضمت إلى جيش جنكيزخان وكوَّن منها إمبراطوريته قبيلة قيات وهى قبيلة جنكيزخان وكانت صغيرة العدد غير متشعبة وقد ولد ونشأ فيها مؤسس الإمبراطورية المغولية وكان والده بسوكاى بهادر رئيس وخان تلك القبيلة.

وكانت تدين بالوثنية وبرغم قلة عدد أفرادها إلا أنها تبوأت مكاناً مرموقاً بين القبائل والطوائف المغولية بعد ظهور جنكيز خان وقيادته الشعب المغولى وهذا أمر طبيعى وبديهيا فهى قبيلة الزعيم.

قبيلة أويرات وكانوا يقيمون فى المنطقة الواقعة ما بين نهر أونن وبحيرة باكيال ويسكنون منطقة منابع يسنى «سه كيز موره ن» أى «الأنهار الثمانية» وكانوا كثيرى العدد ويتكلمون بلغة تختلف قليلاً عن لغة القبائل والطوائف المغولية الأخرى[2].

وقد تشعبوا إلى عدة شعب إلا أنهم كانوا يأتمرون بأمر ملك واحد ولما جاء جنكيز خان خالفوه بعض الشىء فى البداية وناصبوه العداء إلا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الطاعة والخضوع وقد صاهرهم جنكيز خان فيما بعد.

قبيلة النايمان وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى وكانوا يقطنون الحوض الأعلى لنهر أرخون وسفوح جبال آلتاى وحول البحيرات الواقعة فى تلك المناطق ويملكون كل غرب منغوليا ابتداء من شمال نهر أورخون إلى نهر إيرتيش.

---

(١) انظر تاريخ منغوليا ـ هوارث.

(٢) انظر تاريخ الترك آسيا الوسطى ـ بارتولد.

وكانوا بدواً رحلا يقيم بعضهم فى مناطق الجبال الوعرة والبعض الآخر فى الصحارى ويعد النايمان أرقى أنواع الترك ثقافة فى ذلك الوقت وكانوا يتكلمون اللغة المغولية.

وكان لهم ملوك أصحاب شهرة ونفوذ قوى ولهم جيوش كثيرة وكانوا رغم تركيتهم لهم تقاليد وعادات تشبه عادات المغول ويطلق على ملوكهم لقب «كوجلوك خان» أو «بويروق خان» ومعنى كوجلوك الملك المعظم والقوى أما «بويريوق» فمعناه معطى الأمر ومع ذلك فقد كان لكل ملك نايملنى اسم أصلى آخر يختاره له أبواه.

قبيلة الكرابيت وموطنهم الواحات الشرقية الداخلة فى صحراء جوبى وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم وهم شعب شبه بدوى ينتمى إلى أصول تركية.

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى تحول ملكهم ومعظم رعاياه إلى الديانة المسيحية على المذهب النسطورى وأدى تحول الكرابيت إلى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك الأويغور الذين كان بينهم عدد كبيرة من النساطرة فامتدت مدنيتهم إلى الكرابيت.

وقد ظلت قبائل الكرابيت منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين، الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين أقوى قبائل المغول واستطاعوا إخضاع أغلب الطوائف المجاورة لهم.

وتذكر الروايات التاريخية أن ملك الكرابيت اعتنق الدين المسيحى فى سنة ٤٣٨هـ - ١٠٠٧م وأنه قد ذاع أمره فى أوروبا وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم.

وحوالى سنة ١٢٧٠م مات كور ياكوس بن مير جوزخان خان الكرابيت وصادف ابنه طغول بعض العقبات فى الاستحواذ على ملكه إزاء معارضة إخوته وأعمامه إلا أنه انتصر فى حروبه على إخوته وأقاربه بمساعدة يسوكاى بهادر والد جنكيزخان.

كذلك استطاع أن يهزم التتار تلبية لرغبة بلاط كين الصينى وبهذا صار طغرل أقوى ملك ورئيس قبيلة فى منغوليا وقد منحه إمبراطور كين تقديراً له على خدماته وأعماله اللقب الصينى للملك وهو «وانج».

قبيلة المركيت وهم من المغول وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالى بلاد الكرابيت على مجرى نهر «سلنجا» وجنوبى بحيرة بايكال وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد وعرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن.

ولهذا شن عليهم جنكيز خان حرباً شعواء استعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة ولم يقف عند هذا الحد بل أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعاً فلم ينج من سيوف قوات جنكيزخان إلا القليل.

ولم ينج من جنكيزخان إلا بعض الهاربين أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم أو من كانوا لا يزالون أجنة فى بطون أمهاتهم(١).

وذكر القزوينى نقلاً عن صاحب كتاب جامع برزين أن شعب المركيت مستقل عن الشعب المغولى لكنه كان قويا وصاحب نفوذ كبير.

قبائل التتار وهم طائفة كبيرة تتكون من قبائل كثيرة ويتشعبون إلى شعب كثيرة لها شهرة كبيرة ومن المؤرخين يطلق اسم تتار على كافة المغول.

وكان التتار يقطنون المنطقة التى تحد شمالاً بنهرى أرخون وسلنجا ومملكة القرغيز وشرقاً باقليم الخطأ «الصين الشمالية» وغرباً بممالك الأويغور وجنوباً بإقليم التبت.

وبصفة عامة يعيشون فى الجنوب الغربى من بحيرة بايكال حتى كيرولين وكانوا على صلة بالمسلمين وكان من بينهم مسلمون.

وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً فى أقاليم آسيا الشمالية.

---

(١) انظر جامع التواريخ ـ رشيد الدين الهمذانى.

(٢) المصدر السابق.

وكانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعماً وكانوا أثرياء[١].

وقبيل ظهور جنكيز خان استطاع التتار أن يخضعوا أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية وكانوا يتمتعون بشهرة واحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بحيث أن القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها وأهميتها كانوا يتسمون بالتتر فأطلق على الجميع اسم تاتار أو تتر.

ولهذا السبب لا زال حتى الآن فى بلاد الخطأ والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والباشقر وصحراء القباجق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم تاتار على أقوام الأتراك.

ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويعتبرون من ألد أعدائهم ويناصرون القبائل الثائرة عليهم كان جنكيز خان ينظر إليهم بحذر بالغ على أنهم ألد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده فبعد أن انتهى من القضاء على القبائل المناوئة له تفرغ لهم.

وكان جنكيز خان مدفوعاً بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم فقام ومعه جنوده بالإجهاز عليهم واستئصال شأفتهم وأصدر أمراً قاطعاً بألا يترك واحد منهم على قيد الحياة وتنفيذاً لهذا القرار صار جنود المغول يقتلون كل ما هو تترى حتى النساء والأطفال ويشقون بطون الحبالى اعتقاداً منهم أن التتار هم سبب الفتنة وأس الفساد الذى كان متوارثاً عند المغول.

ولم يقف جنكيز خان عند هذا الحد بل أنه لم يترك فرصة لأى شخص لكى يقوم بحماية هؤلاء التتار أو يحاول إخفاءهم ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم أى جنس جديد مهجن من المغول والتتار.

والتتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول ولكن من الغريب أنه على إثر انتصار جنكيز خان على التتار أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه وفى بدء هجوم المغول

(١) انظر جامع التواريخ - مصدر سابق.

على الممالك الإسلامية كانوا يعرفون بالتتار كما أطلق اسم المغول و«مغل» فاشتهروا فى التاريخ بهذين الاسمين كما عرف المغول الذين فتحوا الصين باسم التتر أيضاً «تاتا» بالصينية.

ويقول عنهم ابن الأثير فى كتابه الكامل إنهم تتر.

ولغة التتر تختلف عن لغة المغول وكذلك من لغة الترك[1].

وكان هناك الأتراك الأويغوريون وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال شرقى التركستان الحالية واسم أويغور وهى كلمة تركية تأتى بمعنى الارتباط والتعاون فغلب عليهم هذا الاسم[2].

وقامت الحرب بين الأوغوز والأويغور انتصر فيها الأوغوز ومع ذلك فإن الأويغور عاشوا تحت إمرة الأوغور حتى سنة ٧٤٥م حيث انتقل إليهم الحكم والسيادة وتلقب أميرهم بلقب «قلنمان» التى عربت إلى الخاقان.

وكان الخاقان الأويغورى يلقب نفسه بأمير «الأون» أويغور «أى أمير قبائل العشرة» والطقوز أو غوز «أى أمير قبائل الأوغوز التسعة» واستمرت هذه الدويلة التى رأسها زعيم الأويغور حتى سنة ٨٤٠م اتحدت فيها التسع عشرة قبيلة الأويغور والأغوز حتى قضى القرغيز على دولتهم.

وحين غزا القرغيز بلاد الأويغور أجبروهم على النزوح إلى حوض نهر تاريم حيث أقاموا لهم دويلة ظلوا يمارسون فيها الزراعة والتجارة إلى أن قدم جنكيز خان وسيطر على المنطقة بالكامل.

وكان إلى الغرب من بلاد الأويغور منازل القرلق أصحاب الدولة القراخانية وبليهم قبائل الأغوز أو الغز منتشرة فى مساحة كبيرة حتى بحر قزوين ومن هؤلاء السلاجقة والقبجان والعثمانيون الذين أسسوا دولاً لهم بعد دخولهم فى الإسلام.

---

(١) أنظر ديوان لغات الأتراك ـ محمود الكاشغرى.

(٢) انظر جامع التواريخ ـ مصدر سابق.

وكان الأويغور رغم أفول نجمهم السياسى كدولة يلعبون كأفراد دوراً ثقافيا كبيراً وسياسيا بارعاً عند دول الترك والمغول وهم الذين عهد إليهم جنكيز خان تأديب أولاده كما أقاموا على ديوانه ودواوين أبنائه من بعده.

ووصل نفوذهم لدى سادتهم أن كانوا عمال المغول فى أغلب البلاد الإسلامية التى فتحوها وكان مما دونوه لجنكيز خان إلياسا وهى القوانين المغولية التى عمل بها المغول والتيموريون زمناً طويلاً.

كما استعمل إيلخانات فارس من المغول جنكيز خان وهولاكو الكتابة الأويغورية بدورهم فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى فكتبوا بها إلى بابا روما وفيليب الجميل ملك فرنسا وإدوارد ملك انجلترا بغرض قيام حلف بينهم لحرب المصريين أعداء الطرفين.

وهناك الأتراك القراخطائيون وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى وتقع ما بين مملكة الخوارزمشاهيين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق وكان شاطئ نهر سيحون يكون الحد الفاصل بين مملكة القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية.

وأصل هؤلاء من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين.

وقد ورد اسمهم فى المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادى قبل ظهور الإسلام بزمن طويل.

وفى بداية القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى أن ظهر من بينهم زعيم قوى أخضع هذه القبائل لسلطته ونصب نفسه إمبراطوراً عليهم من سنة ٣٠٤ حتى ٣١٥هـ «٩١٦ ـ ٩٢٧م» وسمى نفسه تاسو واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين ولقبت أسرته باسم لياؤو نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم.

واستمرت هذه الأسرة تحكم فى الصين من سنة ٣٠٤ إلى ٥١٩هـ «٩١٦ ـ ١١٢٥م» أى حوغالى قرنين من الزمان.

أما عن حياة المغول الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية والمعيشية فقد كان

المغول فرسانا رحلا يعيشون فى الخيام وهم قبائل من البدو الرعاة تحكمهم قوانين وعادت ويخضعون لرئيس القبيلة أو الطائفة ويطيعونه طاعة عمياء ويأتمرون بأمره.

وكانت حياة المغول تتفق مع بداوتهم وفقر بلادهم.

والمغول يعتمدون فى طعامهم على الخيل فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها كما أنهم يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها ويدخل فى ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران.

وأيضاً يأكلون لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة من أعدائهم وقد ذكر هوارث ذلك صراحة فقال: كان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم وأيضاً أن المغول فى إحدى غزواتهم فى الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال فى جيوشهم عندما نفد طعامهم ليكون طعاماً للباقين(١).

وكان الرعى والصيد عملهم وحرفتهم الرئيسية الذى تدخل الحرب عليه شيئاً من التنويع وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالاً انتجاعاً للمراعى الصيفية كما ينتقلون مع الشتاء جنوباً إلى المراعى الشتوية.

أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم إلا قليلاً بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة وذلك أنه إذا مات لديهم ثور أو جواد قطعوا لحمه إلى شرائح رقيقة ويعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها الفساد.

وكانوا يستخرجون من ألبان البقر والغنم الزبد والجبن أما ألبان الأفراس فيستخرجون منها نوعاً من اللبن «الرائب» يعرف عندهم باسم «كومس».

وعن هذا اللبن المخمر يقول هوارث إن المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة يتركونه حتى يصبح حامضاً ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به(٢).

---

(١) أنظر تاريخ المغول - هوارث.

(٢) المصدر السابق.

أما عن الملابس التى كان يرتديها المغول فإنها كانت بسيطة للغاية تتناسب مع حياتهم البدوية وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال وأحياناً من جلود الحيوان.

وتكاد ملابس النساء تشبه ملابس الرجال.

ومن عادتهم عدم استبدال ملابسهم إلا مرة واحدة كل شهر وفى فصل الشتاء لا يغيرونها أبداً.

ونادراً ما كانوا يستحمون لذلك اتصفوا بالقذارة والنجاسة ومما يذكر عنهم أنهم كانوا إذا مروا بمكان فإن رائحتهم تلتصق به مدة طويلة.

أما بيوتهم فكانت رائحتها تزكم الأنوف ولا يطيق أحد البقاء فيها لعفونتها.

ويقال إنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة ولا يميزون بين طاهر ونجس(١).

وكان اتصالهم بالصينيين فى الشرق والمسلمين فى الغرب الأثر فى جعلهم يتأثرون بشعوب المنطقة التى استولوا عليها وتعايشوا معها فى طرق حياتهم وتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل وبخاصة تم هذا التحول بعد تأسيس إمبراطوريتهم وخروجهم من أرضهم الجرداء.

وذكر بعض المؤرخين أنهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمينة وتتزين نساؤهم بالحلى والجواهر ويهتمون ينظافتهم وهندامهم كما يفعل أباطرة الصين وملوك وأمراء المسلمين.

وكانت مساكن المغول مثل غيرهم من البدو الرحل تصنع من الصوف وإن كانت تختلف فى طريقة إقامتها فكانت سقوف بيوت المغول على شكل نصف دائرة حتى لا تجرفها الرياح ولا تنقلب بسهولة عندما تشتد العواصف وكانت من أجل ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفاً.

وكانت تشبه إناءً مقلوباً قائماً على حوائط دائرية على صوف مثبت على

(١) المصدر السابق.

هيكل من الأنوال الخشبية المتصلة بعضها بقطع من جلود الحيوانات.

أما وسائل معيشتهم فكانت بدائية وبسيطة أيضاً وكانوا يضعونها فيما يشبه الصناديق من النسيج القوى المغطى بالصوف حتى لا تعطب وكانوا إذا عبروا بتلك الصناديق الأنهار أو نزل عليهم المطر يدهنونها بشحم الحيوان أو بلبن البقر حتى لا تتأثر بالماء.

وكانت بعض بيوت المغول كبيرة تجرها عربات عند نقلها يعلق فى الواحد عشرون بقرة وبعضها صغير يكفى ثور واحدة لنقلها أو تنقل على ظهور الجمال.

وكانت أبواب بيوتهم تتجه نحو الجنوب تجنباً للرياح القادمة من الشمال والغرب القاسية.

وكانت النار تظل مشتعلة دائماً فى وسط البيت أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطاً ويعلقون على الأسلحة والأوانى الجلدية التى كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها على الحوائط وكانوا يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش صاحب البيت ويخصصون الجانب الغربى من البيت للرجال والشرقى منه للنساء.

أما عن حياتهم الأسرية فكانت بسيطة للغاية وفطرية ومع ذلك كان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هذه البساطة أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لإعمال التفكير الناضج فلا هى بالتى تقدر الزواج حق قدره ولا هى بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء.

وكان الزواج عندهم عملية تجارية بحتة ويوضح لنا هوارث ذلك بقوله ويجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة إلا إذا كان قد أشتراها ويحدث دائماً أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آباءهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن!!

ولا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى تنجب له طفلاً أما إذا كانت عاقر فيمكنه طردها.

ولا يقدم الزوج مهراً لزوجته حتى يصبح لها طفل وكانوا يشجعون على الإنجاب حتى يكثر عدد أفراد القبيلة ليقوى من شأنها ويشد من أزرها وكانت المرأة المغولية كلما أنجبت أكثر زيد فى احترامها.

وهم يعيشون وسط مجموعة من الطوائف والعشائر القوية يهدفون إلى الإكثار من نسلهم بالتشجيع على الزواج لذلك صار العرف عندهم عدم تحديد عدد الزوجات كل حسب قدرته وقوته فكان للفرد المغولى أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة.

ومن الأمثلة على ذلك جنكيز خان فقد قيل إنه تزوج بأكثر من خمسمائة زوجة فى وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات وكان جنكيز خان يفضل خمساً منهن(١).

وكان الابن فى بعض الأحيان بعد موت أبيه كان يستولى على زوجات أبيه ما عدا أمه وذلك لأن منزلة الأب والأم تؤول إلى أصغر الأبناء ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن.

ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يولدون فى السرارى والإماء فى الميراث والحقوق الأخرى.

ولم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل مغولى من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها فى المجتمع المغولى.

وكانت القوانين السائدة لدى المغول تظهر عليها الشدة والقسوة لردع المعتدين وحفظ الأمن فى مجتمعهم وهى التى أقرها جنكيز خان وأضاف إليها أشياء تتناسب مع مكانة المغول فى البلاد المفتوحة.

فقد كانت تقضى بالموت على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة الكبيرة أو التجسس أو يستخدم السحر والشعوذة فى حياته.

كما كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضرباً مبرحاً قد يودى

---

(١) المصدر السابق.

بحياة المضروب فى بعض الأحيان.

أما إذا كانت الجريمة سرقة جواد أو شىء كبير فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف إلا إذا كان قادراً على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال الشىء المسروق.

وكان المغول يدينون بديانة وثنية تعرف بالشمانية طبقاً لعقائد الشامانية كل شىء يسمو على مداركهم وكل ما يرهبهم ويدخل الخوف على قلوبهم يعبدونه فلهم آلهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة.

وأيضاً لهم آلهة فى الشمس والقمر وفى البرق الخاطف والرعد القاصف بل لهم آلهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم.

وإذا اتجهوا فى صلواتهم صوب الجنوب دل ذلك على احترامهم وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء وصوب الغرب دل احترامهم للنار للماء وصوب الشمال يدل احترامهم للموتى.

ورجال الدين عند المغول كانوا أشبه بالكهنة عند المصريين القدماء طبقة مستتيرة تجيد علم الفلك وتحدد وقوع الخسوف والكسوف فى أوقاتها وتعين للمغول الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له وأن لم يصل نفوذ هؤلاء الكهنة إلى نفوذ نظرائهم فى مصر القديمة.

وكان المغول يأخذون بآراء رجال الدين عندهم قبل أن يقدموا على عمل هام ولا يجمعون جيشاً ولا يدخلون حرباً إلا بعد أخذ موافقتهم.

وكان هؤلاء الكهان يعتمدون فيما يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقوق التى تظهر على أكتاف الحيوانات المحروقة ويعتبرون الأغنام والعجول هى أصلح الحيوانات لهذا الغرض وخاصة إذا كانت مقدمة كقرابين للآلهة[1].

---

(١) المصدر السابق.

أهم صفات المغول:

وقد اشتهر المغول بصفات ثلاث تميزوا بها دون سائر الشعوب الأخرى الأولى صفات جسدية والثانية صفات خُلقية والثالثة صفات حربية.

وهذه الصفات الثلاث اكتسبها المغول نتيجة نشأتهم فى بلاد فقيرة قاسية المناخ تتناسب مع البيئة التى شبوا فى أحضانها.

أما الصفات الجسدية تتمثل فى الرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الواسع والساقين القصيرتين المتوسطين وقصر القامة والبشرة الصفراء السميكة.

وتسبب فقر البلاد وقلة الغذاء وقسوة المناخ فى تحول الوجه وبروز عظام الخد وقصر القامة منذ أمد بعيد.

كما أن البشرة السميكة والجفون المسترخية التى حباهم الله بها تقيهم الرياح العاتية التى يتعرضون لها فى بلادهم المترامية فى معظم أيام السنة وكان سيقانهم معوجة رجالاً ونساء لأن معظم أوقاتهم يقضونها على ظهور الجياد.

وصفاتهم الخُلقية مرتبطة البيئة التى عاشوا فيها حيض أضفت عليهم صفاتاً خلقية فريدة فهم كانوا يعيشون عيشة بدوية وسط قبائل وطوائف كثيرة أقوى منهم عدة وعدداً وأقسى منهم شراسة وحباً لسفك الدماء وكان لابد أن يصطدموا بتلك القبائل حينما كانوا يعملون على توفير المراعى لماشيتهم فى فصول السنة المختلفة.

ولذلك كانت تقوم المعارك الطاحنة وتشتد أحوالها بين القبائل المغولية على المراعى الخضراء ومجارى المياه.

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى اسلتزمتها ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظافرهم فكانوا يدربونهم

وهم فى الثالثة من أعمارهم على استعمال القوس والنشاب كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران.

هكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة لذلك كانت حياتهم حرباً مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد فأعطتهم صفات المحاربين.

هذه هى البيئة التى خرجت أمثال تيمورلنك وجنكيزخان وهولاكو فبالرغم من دخول غالبية منهم فى الفترة من نهاية عصر هولاكو إلى عصر تيمورلنك فى الإسلام إلا أن إسلامهم لم يكن كاملاً فقد ظلوا يلتزمون بأحكام «إلياسا» التى وضعها جنكيز خان ويقاتلون من يخرج عليها وهذا ما جعلهم على سابق عهدهم بسفك الدماء وهدم الحضارات وقتال المسلمين.

ففى الفترة من ٧٢٧هـ - ٧٣٥هـ «١٣٢٦ - ١٣٣٤م» اعتنق الإسلام أحد ملوك المغول ترماشين خان ابن كيك خان وهو من سلالة جنكيز خان وكان يحكم بلاد ما وراء النهر الخاضعة بفرع جغطاى بن جنكيز خان والتى عرفت باسم بلاد أوخانية جغطاى حتى العصر التيمورى.

ولأن هذا الخان قد التزم بتعاليم الإسلام وترك تعاليم جنكيز خان وأطلق على نفسه اسم علاء الدين حاربه قومه وأعلنوا التمرد عليه عام ٧٣٤ هـ - ١٣٣٣م وعزلوه من الحكم ونصبوا بدله أحد أبناء عمومته وحاولوا قتله فهرب منهم إلى غزنة ولكنه اعتقل هناك من قبل أحد أقربائه وأعيد إلى عاصمة البلاد «قارشى» - مدينة نسف الآن - وتم قتله عام ١٣٣٤م.

وكانت تلك الواقعة قبيل ميلاد تيمورلنك بعامين وهى تدل على تمسك المغول بشريعة جنكيز خان الوثنية الكافرة وطبيعة إسلامهم.

ومن هنا لا نستغرب ما فعله تيمورلنك بالإسلام والمسلمين وغيرهم رغم كونه يدعى الإسلام هو وقومه كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

وأما عن أحوال العالم العربى والإسلامى فقد انتهت الخلافة العباسية على

أيدى هولاكو عام ٦٥٦هـ باحتلال بغداد ورغم أن السلطان بيبرس قد أعادها بعد ثلاث سنوات فى القاهرة إلا أنها كانت خلافة رمزية وكان الحكم لسلاطين المماليك الذين حكموا مصر والشام وهم المماليك الأتراك الذين خاضوا حروباً شرسة ضد المغول الإلخانيين فى بلاد ما وراء النهر إيران وأفغانستان وآسيا الصغرى كى يمتنعوا عن مهاجمة بلاد الشام وقد تم لهم ذلك فى عصر السلطان المملوكى محمد الناصر بن قلاوون «١٢٩٣ - ١٣٤١م».

وكان مغول القبيلة الذهبية أبناء جوجى بن جنكيز خان قد تحالفوا مع المماليك منذ تولى بركة خان زعامتهم وبعد إسلامه وحاربوا معاً ضد المغول الإيلخانيين واستمر ملوك القبيلة الذهبية يحكمون منطقة سواحل بحر قزوين الشمالية الغربية وجبال القفقاس وسواحل البحر الأسود الشمالية والإغارة على أبناء عمومتهم الإلخانيين عبر القفقاس وشمال أذربيجان حتى مطلع الحكم التيمورى حتى انقسموا على أنفسهم ودب الخلاف بينهم وفر أحدهم ويدعى توقميش إلى تيمورلنك لمساعدته فى الاستيلاء على عرش البلاد وقد تم له ذلك لصالح تيمورلنك كما سيأتى بيانه.

أما دولة المغول الإلخانيين - الجات[1] - ببلاد إيران والعراق وآسيا الصغرى فقد تفككت قبيل العصر التيمورى وانقسمت لعدة دول وهناك الدولة التركية العثمانية التى كانت تابعة لسلطة سلاجقة الروم وتوسعت على يد مؤسسها السلطان عثمان وابنه أورخان فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى فى آسيا الصغرى ثم كانت دولة الجلائريون فى بغداد وتبريز ثم دولة المظفريين فى يزد الفارسية ودولة الكريتون فى «هرات» وخراسان الشرقية ثم دولة التركمان والهند والصين.

■ ■ ■

(١) الإيلخانيين تعنى الخانات أي الملوك التابعين للخان الأعظم للمغول.



4

من التفكك إلى إعادة تكوين الإمبراطورية

- الأصول السياسية المهيئة لظهور الطاغية.
- الصراع على الحكم فى الدولة المغولية الإيلخانية التى أسسها هولاكو، وانقسامها إلى دويلات متصارعة قبل ظهور تيمورلنك واستيلائه عليها.

الأحوال السياسية المهيئة لظهور الطاغية

فى كل العصور نجد أن هناك ظروفا وأحوالا تسبق ظهور أى شخصية قيادية ديكتاتورية قوية طاغية فى أى منطقة بالعالم وأى فترة زمنية أهمها التفكك والصراع على السلطة بين أفراد فى منطقة أو دولة معينة وهذا ما حدث مع تيمورلنك حيث إن الدولة المغولية الإليخانية والتى حكمت بلاد إيران والعراق ووسط آسيا وكانت تابعة للدولة المغولية التى أسسها جنكيز خان وكان قائدها هولاكو أحد أحفاده قد تفككت ودب الصراع والخلاف فيما بين الفرقاء وتلك إحدى طبائع المغول حين لا يوجد القائد الطاغية.

فقد شهدت هذه البلاد الحكم الإسلامى العربى بعد القضاء على حكم الفرس وسقوط دولتهم على أيدى المسلمين الأوائل فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما واستمر الحكم العربى لتلك المنطقة نحو مائتى عام ثم تكونت الإمبراطورية الخوارزمية المسلمة وقبلها الدولة القرخانية المسلمة ولكن الإعصار المغولى دمر تلك الدول منذ جنكيز خان وحتى هولاكو ثم دخول المغول فى الإسلام على الوجه الذى ذكرناه من عدم اتباعهم تعاليم الإسلام وأحكامه فى شعائرهم الدنيا.

وكانت بلاد ما وراء النهر من نصيب ابن جنكيز خان جغطاى وأطلق عليها خانية جغطاى واستطاع هولاكو توسيع تلك الدولة المغولية ورغم دخولهم فى الإسلام كما فعلت القبيلة الذهبية إلا أنهم ظلوا يحاربون المسلمين ولا يلتزمون بشريعة الإسلام.

وانقسم العالم الإسلامى إلى ثلاثة أقسام، دولة المماليك ذوى الأصول التركية وتضم بلاد الشام والحجاز ومصر وكان الخليفة العباسى يقيم فى

القاهرة منذ عصر السلطان المملوكى الظاهر بيبرس وكانت خلافته رمزية.

وقبل ظهور تيمورلنك فى عام ١٣٨٢م استطاع أحد الأمراء المماليك الشراكسة الوصول إلى الحكم فى مصر وأنهى حكم المماليك الأتراك وهو الذى سوف يتصدى لغزوات تيمورلنك.

وكانت القبيلة الذهبية وهم أحفاد جوجى بن جنكيزخان يحكمون بلاد روسيا وشمال شرق العالم الإسلامى وقد دخلت هذه القبيلة فى الإسلام كما ذكرنا وتعاونوا مع المماليك فى غزو بلاد دولة المغول الإلخانية التى أسسها هولاكو.

وانقسمت دولة المغول الجغطائيين فى أواسط آسيا منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى إلى إقليمين هما إقليم مغولستان فى الشرق ويمتد من نهر سيحون إلى حوض تاريم ونهر ارتس والإقليم الآخر ما وراء النهر فى الغرب.

واستمر الصراع بين الإقليمين من الخارج والداخل وقد سيطرت العشائر المغولية والتركية على المناطق التى تقيم فيها ومن هذه العشائر عشيرة البرلاس التى ينتمى إليها تيمورلنك وقد سيطرت على منطقة «كشكاداريا» بإقليم ما وراء النهر.

فقد انقرضت سلالة هولاكو بموت أبى سعيد بهادر خان عام ٧٣٦هـ وانقسمت دولة المغول الإيلخانية إلى أربع دول هى الجلائرية وقد حكمت مناطق العراق العربى وتوريز فى أذربيجان وعاصمتهم توريز ثم حكم المظفر وهم من العرب حيث حكموا بلاد فارس وعراق العجم وكرمان وعاصمتهم يزد ثم الكرت وتحكموا بالمناطق الشمالية الشرقية وعاصمتهم «هراة» ثم حكم السربدراريون فى سبزاور فى خراسان.

لقد تهيأت الظروف السياسية من التفكك لظهور الطاغية تيمورلنك.

فالبداية كما ذكرنا تفكك الدولة المغولية الإيلخانية التى ينتمى إليها تيمورلنك بقبيلة برلاس فى إقليم ما وراء النهر فماذا حدث لهذه الدولة المغولية

وكيف انتهت سلالة هولاكو مؤسسها؟

كان موت السلطان أبى سعيد بهادر خان المفاجئ وهو فى طريقه لحرب أوزبك خان ملك دشت القيجاق ضربة كبيرة للدولة الإيلخانية خاصة وأن أبا سعيد توفى دون إنجاب وريث للعرش فكان آخر الملوك المنتسبين لسلالة هولاكو مؤسس الدولة فوقعت الإمبراطورية الإيلخانية فريسة لأعنف الاضطرابات مما عجل بنهايتها ودخولها فى دور الاحتضار.

ومع ذلك قام الوزير خواجة غياث الدين محمد بحكمته وحزمه من تنفيذ وصية السلطان أبى سعيد وعرف كيف يسوس النفوس الجامحة الطامعة فى الملك بحكمة هادئة جعلت الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا على وشك الوثوب على الحكم يطرحون أحقادهم جانباً ويتعاونون جميعاً فى المحافظة على سلامة الدولة ورخائها.

فقد أوصى أبو سعيد وهو فى فراش المرض لوزيره خواجه غياث الدين محمد أن يخلفه على العرش الإيليخانى الأمير أرباكاو لأنه أصلح الأمراء لتولى هذا المنصب فقام الوزير خواجة غياث الدين محمد بتنفيذ الوصية فاستدعى أرباكون الذى كان يعمل مشرفاً على الإصطلابات السلطانية وأبلغه بقرار تنصيبه فى نفس الليلة التى توفى فيها السلطان أبو سعيد وذلك عام ٧٣٦هـ.

واجهت أرباكاون صعوبات عديدة حتى تستتب له الأمور كابلات أهمها على الإطلاق أنه ليس من بيت هولاكو المؤسسين للدولة الإيلخانية فى إيران والعراق وإنما هو من حفدة أريق بوقا الأخ الأصغر لهولاكو وهو ابن سوسه بن سنكتان ابن ملك تيمور بن أريق بوقا بن تولى خان بن جنكيز خان.

وقام الوزير خواجه غياث الدين محمد بمجهودات مكثفة واتصالات عديدة مع أمراء المغول ونساء السلطان أبى سعيد وأميرات البيت المالك وأزواجهن وكبار رجال الدولة وقادة الجيش للحصول على موافقتهم على ترشيح أرباكاون فوافقوا على ذلك.

وتم تنصيب أرباكاون إيلخاناً فى احتفال كبير حضره جميع الأمراء وأعيان المملكة حيث وضع التاج المرصع على رأسه وتسمى باسم «أربا خان» وتلقب بمعز الدين والدنيا.

ولم يخالف تنصيب أربا خان سوى الأميرة «بغداد خاتون» التى أعلنت معارضتها تولية العرش ومع ذلك استمر الوزير خواجه غياث الدين محمد يكثف جهوده حتى تمت الاحتفالات دون معارضة تذكر.

ثم قام ومعه الأمراء وكبار رجال الدولة بتشييع جثمان السلطان الراحل أبى سعيد إلى مثواه الأخير ووقف يتقبل العزاء كما فرق الصدقات على روح السلطان المتوفى.

ولم يرض أربا خان عن تصرفات الأميرة بغداد خاتون ابنة جوبان وأكبر زوجات السلطان أبى سعيد فقد استخفت به وبشخصيته على أساس أنه لا يليق للسلطنة وغير جدير بها بل ولا تحق له لأنه ليس من أسرة هولاكو وبدأت تحرض الأمراء الإيلخانيين على أربا خان وتحقر من شأنه بل وصل بها الأمر أن كاتبت أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية.

ولم يقف أربا خان مكتوف الأيدى أمام هذا التيار المعادى وتلك الحملة التى رفعت لواءها بغداد خاتون وانتهز فرصة ثبوت تهمة قيامها بوضع السم لأبى سعيد والذى أثبته الأطباء الذين لازموه أثناء مرضه وضيق الخناق عليها حتى اعترفت بجريمتها انتقاماً منه لحبه «دلشاد ختون» ابنة دمش خواجه حبا شديداً وهجرة أياها.

وعرض أرباخان أمرها على الأمراء فقرروا التخلص منها وقام أحد الأمراء ويدعى خواجه لؤلؤ فى أواخر ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هجرية بقتلها وهى فى الحمام.

وكان أول عمل قام به أربا خان أن أكمل خطة سلفه أبى سعيد ونهج سياسته فى قتال أوزبك خان الذى وجد أمامه الفرصة سانحة بوفاة أبى سعيد

وطمع فى مملكته وأعلن الحرب على أربا خان وتقدم بجيوشه نحو الأطراف الشمالية، وكانت من الكثرة بحيث يمكنها تدمير إيران تماماً.

فأسرع أربا خان لملاقاته وحاربه وانتصر عليه لكنه ما أن عاد إلى سلطانية عاصمة ملكه وقد اعتقد أن أمراء مغول إيران سوف يسعدون بانتصاره.

إلا أنه وجد الأمراء الإيلخانيين وقد انقلبوا عليه ولم يقدموا التهنئة له لانتصاره على أوزبك خان رئيس القبيلة الذهبية والعدو التقليدى للدولة الإيلخانية ومع ذلك لم يبادلهم العداء بل أقبل على استرضائهم ومن بين ذلك زواجه من ساتى بك ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبى سعيد والتى كانت فى يوم ما زوجة الأمير جوبان فى محاولة منه لاسترضاء بيت هولاكو.

لكن هذه الزيجة حركت الخلافات المستترة بين أفراد الأسرة الإيلخانية فقامت عليه دلشاد خاتون أرملة السلطان أبى سعيد ابنة دمشق خواجه بن الأمير جوبان وأيدتها حاجى خاتون أم السلطان أبى سعيد وصرحتا بعدم اقتناعهما بسلطنة أربا خان.

كذلك وجد بعض الأمراء من بيت هولاكو الفرصة سانحة للدخول فى الخلافات التى نشبت بين أربا خان ونساء أبى سعيد فانضموا إليهما وقوى حزبهم وغادرت دلشاد خاتون المعسكر السلطانى وتوجهت إلى بغداد ولجأت إلى الأمير على بادشاه خال السلطان أبى سعيد والذى كان غير راضٍ عن تنصيب أربا خان العرش الإيلخانى وادعت أنها حامل من السلطان أبى سعيد.

وانتهزت الجماعة المعادية للإيلخان الجديد إعلان حمل دلشاد خاتون أرملة أبى سعيد وأعلنت أنه فى حالة إنجابها ذكراً فإنه سيعين سلطاناً خلفاً لأبيه ولإشعار أربا خان بأنهم غير راضين عن سلطنته.

وتزعم الأمير على بادشاه خال السلطان أبى سعيد وحاكم بغداد الحركة المناوئة لأرباخان واتصل بأمراء الأويرات وبعض أمراء العرب للانضمام إلى

حركته وسرعان ما انضم إليه عدد كبير من أمراء وأميرات بيت هولاكو واستقر رأيهم على تنصيب الأمير موسى بن على بن بايدوخان ايلخاناً وأجلسوه على العرش الإيلخانى وتلقب بموسى خان.

وتلا ذلك قيام على بادشاه بمراسلة أمراء الجيش وكبار رجال الدولة للانضمام إلى حركته وتأييد موسى خان وفى الوقت نفسه كان يستعد لحرب أربا خان والإطاحة به.

وجد أربا خان نفسه مضطراً لمواجهة الموقف بعد أن يئس من مصالحة مناوئيه وجيش الجيوش لحرب موسى خان وعلى بادشاه.

وما أن علم بتحرك جيش على بادشاه وبصحبته الإيلخان الجديد موسى خان حتى أسرع لملاقاته وتقابل الفريقان قرب شاطئ نهر جغاتو عند مراغة وجعل أربا خان نفسه على قلب الجيش ووقف فى صفوفه كأى جندى مقاتل.

كما قاد الوزير خواجة غياث الدين محمد الميسرة ورأى الأمير على بادشاه أن جيش أربا خان يفوق جيشه عدداً وعدة فأعمل الحيلة والمكر للإيقاع بعدوه فأرسل شخصين من رجاله إلى الوزير خواجه غياث الدين محمد أخبراه بهزيمة الإيلخان.

وفى الوقت نفسه أرسل رسولين إلى أربا خان وأبلغاه هزيمة وزيره خواجه غياث الدين محمد وفعلت هذه الأخبار فى نفس الإيلخان ووزيره فعلها ودخل اليأس والخوف قلبيهما كذلك تفرقت الجنود بعد أن علموا بأخبار الهزيمة واضطربت صفوفهم.

وما أن تأكد الأمير على بادشاه قائد جيوش موسى خان بنجاح خطته حتى حمل على من بقى من الجند فى أراضى المعركة.

وفى ١٧ رمضان سنة ٧٣٦ هجرية قبض على أربا خان بعد هزيمته أما الوزير خواجه غياث الدين محمد فإنه هرب من أخيه بير سلطان بعد أن علما بحقيقة الأمر وما وقعا فيه من خطأ وتأكدا من إلقاء القبض على الإيلخان أربا

خان فانسحبا إلى مراغة فتبعهما بعض الجنود وقبضوا عليهما فى موضع يقال له «سه كنبدان» بجهة مراغة وأحضروهما أمام الأمير على بادشاه.

وكان بين الأمير على بادشاه والوزير خواجه غياث الدين محمد عداوة دفينة لكنه كان يقدره كشخصية ممتازة سواء فى خلقه أو علمه وإدارته.

وكان الأمير على بادشاه يميل إلى الإبقاء على حياته بل وأنه بذل كل ما فى وسعه ليحفظ له حياته لكن تحت ضغط سائر الأمراء المغول الذين أصروا على إعدامه لقى خواجه غياث الدين محمد الموت فى الحادى والعشرين من رمضان سنة ٧٣٦هـ.

وبعد ثلاثة أيام قتل أخوه بير سلطان مع جماعة من الأمراء الذين كانوا فى جانب أربا خان ثم تلى ذلك مصادره أموال الوزير خواجه غياث الدين محمد وأموال أسرته وأقربائه وأتباعه كما قام أهالى تبريز بالإغارة عيل منازل أسرة غياث الدين وكان عددها يزيد على الألف وأغاروا على منازل الوزراء واستولوا على ما بها من جواهر ونقود وأقمشة وأمتعة وكتب نفيسة.

أما أربا خان فإن أمراء المغول تخلصوا منه حيث سلموه فى اليوم الثالث من شوال من نفس السنة إلى أسرة إينجو حكام شيراز ليقتصوا منه حيث كان أربا خان قد قتل الأمير شرف الدين محمود شاه إينجو فقتلوه وهكذا لم يستمر حكمه سوى ستة أشهر وكذلك موسى خان نفسه الذى لم يدم حكمه شهرين.

فقد بدأ موسى خان حكمه بتعيين قائد جيوشه الأمير على بادشاه فعينه أميرا للأمراء ونائباً للملك وأطلق يده فى شئون الحكم والإدارة وعين معه جمال الدين بن تاج الدين على شيروانى وزيراً.

ولم تستقر الأمور فى الدولة المغولية بتولية موسى خان العرش الإيلخانى بل تصدعت أركان الدولة فى عهده ذلك أن كبار أمراء المغول كانوا يطمعون فى الوصول إلى العرش.

وبدأ كل واحد منهم يهيئ خططه للوثوب إلى السلطة واتفقوا جميعاً على

ذلك واستهانوا بموسى خان كما لم يقبلوا الأمير على بادشاه أميرا للأمراء ولا جمال الدين الشيروانى وزيراً وأخذوا يثيرون الفتن والاضطرابات فى كافة أنحاء المملكة حتى عمت الفوضى واختلت أمور الدولة.

وانتهز أمراء الأطراف الفرصة وزادوا النار لهيباً وعمل كل واحد منهم على إضعاف الحكومة المركزية والدخول فى المهاترات الدائرة بأى شكل من الأشكال فاستقلوا بما تحت أيديهم من ولايات أو مدن.

وقامت ثورات تطالب بتغيير الأوضاع كان من أهمها ثورة الأمير الشيخ حسن بزرك الإيلكانى الذى كان يحكم بلاد الروم بآسيا الصغرى.

وأيضاً ثورة حاجى طغاى حاكم ديار بكر وأرمينية منذ عام ٧٣٢هـ وكان بينه وبين الأمير على بادشاه عداوة وثأر فأرسل إلى الأمير شيخ حسن بزرك يطلب منه إعداد قواته لمواجهة الموقف.

وما أن أتحدث الثورتان ثورة شيخ حسن بزرك وثورة حاجى طغاى ضد موسى خان ونائبه الأمير على بادشاه حتى سار شيخ حسن بزرك قاصداً تبريز على رأس جيش من التركمان والعرب والإيرانيين لمحاربة على بادشاه.

واختار الثوار أحد الأمراء من سلالة منكو تيمور بن هولاكو لمنصب الإيلخانية كما اختاروا خواجه محمد زكريا سبط الوزير خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى وزيراً.

أسرع موسى خان لقتال أعدائه واصطفت فى أرض المعركة جيوش للطرفين استعداداً للنزال والقتال ولكن حدث ما غير الوضع كلية ذلك أن زعماء المتصارعين اتفقوا على ألا تتقابل جيوشهما ويكتفيا بصراع المطالبين بالملك على أن ينصب من ينتصر منهما إيلخانا.

وتقابل موسى خان مع محمد خان وتصارعاً بالسيف تارة وبالأيدى تارة أخرى تبادلاً خلالها اللكمات وأخيراً تمكن موسى خان من هزيمة خصمه محمد خان وطرحه أرضاً بعد أن أشبعه لكماً وضرباً.

وحدث أثناء الصراع بين الملكين المتصارعين أن قام الشيخ حسن بزرك فجأة وقتل بسيفه الأمير على بادشاه قائد جيوش موسى خان فخشى الأمير موسى على نفسه وفر من أرض المعركة وكان هروبه السبب الذى من أجله قرر أمراء المغول هزيمته وتنحيته عن الحكم ففر إلى بغداد وانتهت بذلك دولته وعصره بعد أن حكم شهرين!!

اتفق كل من الأمير شيخ حسن بزرك ومحمد خان على دخول تبريز بعد مقتل الأمير على بادشاه وهروب موسى خان إلى بغداد وفى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٣٦ هـ جلس محمد خان على العرش الإيلخانى.

وكان أول عمل قام به أن عين الأمير شيخ حسن أميراً للأمراء ونائباً للملك فقبض الأمير شيخ حسن بزرك على زمام الأمور بيد من حديد حتى إن محمد خان لم يكن له من الملك شىء بل كان ألعوبة فى يده.

وبدأ الأمير حسن بزرك يقتص من الأمراء الذين وقفوا ضده فى عهد السلطان أبى سعيد بل وآذى كل من كان على صلة ببغداد خاتون فعاداه نتيجة لذلك كرهه أمراء البيت الإيلخانى قاطبة ونفر منه كبار رجال الدولة لبطشه بهم علاوة على أعدائه القدماء وكانوا كثيرين وعادوا أيضاً الإليخان الجديد محمد خان وتوجهوا إلى خراسان بعيداً عن أذربيجان والعاصمة تبريز وسلطانية ليعلنوا فيها الثورة ضد شيخ حسن برزك الإيلكانى واستدعى الثائرون أحد أمراء المغول من نسل جنكيز خان ويدعى طغاتيمور وكان يقيم بمازندران بعد تولية محمد خان ونصبوه إيلخاناً بخراسان.

وصار يدعى له فى الخطبة وينقش اسمه على السكة (العملة) وعلى هذا النحو أصبح فى إيران إيلخانان اثنان أحدهما فى الشرق وهو طغاتيمور والآخر فى الغرب وهو محمد خان(١).

وانضم الأمير شيخ على قوشجى أحد زعماء الحركة المناوئة لحكم محمد خان ونائبه الأمير شيخ حسن بزرك إلى صفوف المعارضة وجمع جيشاً أرسله

(١) انظر تاريخ المغول ـ هوارث مصدر سابق.

برفقة طغاتيمور للإطاحة بمحمد خان وشيخ حسن بزرك المقيمين فى أذربيجان.

وعند وصول طغاتيمور إلى حدود أذربيجان انضم إليه موسى خان الإيلخان السابق وكان يقيم فى بغداد وتعاهدا على أنه فى حالة انتصارهما فإنهما يقسمان المملكة بينهما على أن تكون خراسان والمناطق الشرقية من الدولة الإيلخانية من نصيب طغاتيمور أما محمد خان فإنه يختص بحكم المناطق الغربية.

وهكذا تقابل المطالبون الثلاثة بالعرش الإيلخانى فى أرض معركة واحدة حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين وانهزم طغاتيمور هزيمة منكرة وتبدد شمل جيشه وفر من ميدان القتال هو وحليفه موسى خان الذى لم يتمكن من الفرار ووقع أسيراً فى يد أعدائه وهو يحاول الفرار فقتله شيخ حسن بزرك بيده فى العاشر من ذى الحجة من العام نفسه «شهر يوليو سنة ١٣٣٧م».

وفى اليوم نفسه الذى هزم فيه طاغاتيمور قام أحد الأمراء ويدعى أرغون شاه ابن الأمير نوروز وهو فى خراسان بقتل شيخ على قوشجى وبذلك قضى فى يوم واحد على عدوين قويين لمحمد خان وإن كان طغاتيمور قد رحل إلى خراسان وأنشأ حكومة هناك مثل ما يفعله البعض من إعلان حكومة فى المنفى لكن الأمر لم ينته إلى هذا الحد.

ولم ينعم محمد خان وأمير أمرائه شيخ حسن بزرك بجنى ثمار انتصارهما حتى فوجئا فى الثانى عشر من جمادى الثانية عام ٧٣٨هـ بعد بضعة أشهر من انتصارهما على كل من طغاتيمور خان وموسى خان بقيام الأمير شيخ حسن كوجك بن تيمور قاش بن جوبان بثورة ضدهما وقاد عدة معارك فى بلاد الروم بآسيا الصغرى انتصر فيها على جيوش الإيلخان واستعد لدخول أذربيجان والاستيلاء على الحكم[1].

وقد أرسل محمد خان وحسن برزك إلى السلطان المملوكى محمد بن

(١) انظر تاريخ المغول ـ هوارث، وتاريخ إيران ـ حبيب الله شاملوئى.

قلاوون بمصر عام ١٣٣٧م يطلبا مساعدته ضد أعدائهم إلا أن السلطان المملوكى وقف على الحياد فأرسل بعضاً من عساكره على الحدود تنتظر ما يحدث من صراع بين الأمراء المغول فى الدولة الإلخانية ولم تتدخل تلك القوات لصالح أحد الأطراف.

وتقابلت قوات شيخ حسن برزك فى «آلاتاغ» من نواحى نخجوان ببلاد القوقاز انتهت بهزيمة منكرة للأمير حسن برزك وفراره من أرض المعركة.

وقام حسن كوجك بتكوين حكومة فى تبريز وانتهى حكم محمد خان واستمر الصراع بين الأمير حسن برزك وغريمه التقليدى حسن كوجك كما سيأتى بيانه.

وحين استولى شيخ حسن بزرك على أذربيجان واستبد بالسلطة اتفق جماعة من أمراء السلطان أبى سعيد على إقامة حكومة بخراسان.

وكان من بين رؤساء الحركة الأمير بير حسين حفيد جوبان وأرتمون شاه ابن نوروز وعبدالله ابن أمير موالى وعلى جعفر وساعدهم الأمير شيخ على بن على قوشجى.

وقرروا تنصيب الأمير طغاتيمور العرش المغولى ونادوا به إيلخاناً عام ٧٣٧هـ ـ ١٣٣٧م.

وبذلك أصبح فى إيران إيلخانان ـ ملكان ـ أحدهما فى شرقى البلاد والثانى فى غربيها.

وذلك بعد هزيمة طغاتيمور خان أمام جيش محمد خان عند نهر «كرم رود» فانسحب طغاتيمور إلى بسطام حيث حكم مازندران وخرسان بوصفه خاناً وذلك عام ٧٣٧هـ.

وفى عام ٧٤١هـ ـ ١٣٤١م أغار طغاتيمور خان للمرة الثالثة على العراق تناصره الأميرة ساتى بك ابنة السلطان أولجايتو خان وأخت السلطان أبى سعيد بهادر ومعها ابنها شبرغان من الأمير جوبان فلحقت الهزيمة بجيش

طغاتيمور الذى كان على قيادته أخوه الأمير على كاون وعلى هذا النحو انتصر شيخ حسن كوجك على منافسيه وأصبح سيد الموقف.

ولم تسلم خراسان من الفتن والثورات فقامت ثورة نبعت من الشعب نفسه ذلك أن خواجه علاء الدين محمد وزرير خراسان زمن طغاتيمور نهج سياسة غاشمة وساد الفساد فى البلاد فأدى كل ذلك إلى استيلاء السرابداريين على مدينة سبزوار بقيادة خواجه عبدالرازق(١) وإعلانه الاستقلال عام ٧٣٧هـ.

وبسط نفوذه على خراسان وطردوا منها أرغون شاه صاحب نيسابور وطوس وهزم وجيه الدين مسعود السريدارى جيوش طغاتيمور عند نهر أترك وقتل أخوه على كاون وتمكنوا من توطيد سلطانهم وتأسيس دويلة لهم فى خراسان ولكنهم خضعوا لتيمورلنك عند ظهوره وذلك عام ١٣٨٣م.

وقد زال العداء الذى كان بين طغاتيمور والسربدارين بعد تمكنهم من السلطة وإقرار طغاتيمور خان بوجودهم، وحدثت المصالحة بين الطرفين.

ويذكر المؤرخون أن طغاتيمورخان كان رجلاً متواضعاً لا يميل إلى القتال وسفك الدماء، واستمر يحكم مدة سبعة عشر عاماً فى هدوء وراحة بال إلى أن قتله أحد السربداريين فى إحدى زياراته للخان.

وكانت وفاته فى اليوم السادس عشر من ذى القعدة عام ٧٥٤ هجرية (ديسمبر ١٣٥٣ م) قبل أن ينتهى الحكم لايلخانى نهائيا فى إيران والعراق بسنتين بوفاة الإيلخان أنوشيروان العادل.

أما الأمير شيخ حس كوجك حين دخل مدينة تبريز منتصراً، لم يجد أحداً من أمراء الأسرة الإيلخانية يليق بأن تسلم إليه مقاليد البلاد، لكنه وجد الأميرة ساتى ابنة السلطان محمد خدابنده أولجايتو وأخت السلطان أبى سعيد بهادر متزعمة البيت الإيلخانى، فانضم إلى جانبها بعد أن رفضت الانحياز إلى شيخ حسن بزرك، وتوجه إليها وصحبها معه إلى تبريز.

---

(١) زعم خواجه عبدالرازق أنه من نسل الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه.

وقد وافق الأمراء الإيلخانيون بتحريض من شيخ حسن كوجك على تعيين ساتى بك إيلخانا.

وبرر الأمراء ذلك بأن لهذه الأميرة الحق فى العرش ما دام لم يبق هناك ذكر من سلالة هولاكو على قيد الحياة.

وبذلك ارتقت «ساتى بك» العرش الإيلخانى سنة ٧٣٩ هجرية وصار يذكر اسمها فى الخطبة وينقش على السكة، (العملة المعدنية) واختارت لإدارة شئون البلاد وزيرين هما ركن الدين شيخى من أسرة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمدانى وغياث الدين محمد من أبناء على شاه. وما لبثت الإيلخان الجديدة «ساتى بك» أن سارت بصحبة شيخ حسن كوجك على رأس الجيش الذى التف حولها إلى مدينة سلطانية.

ولما سمع بذلك شيخ حسن بزرك تقدم ليواجه منافسيه، ثم دارت المفاوضات بينهما وتم التصالح، واعترف شيخ حسن بزرك بأحقية ساتى بك فى عرش المغول.

وانحصرت مملكة الإيلخان «ساتى بك» فى آذربيجان وأران، وبدأ شيخ حسن كوجك يتدخل فى أمور الدولة.

أما بقية الولايات فكانت تحت حكم أمراء منفصلين عن الدولة الإيلخانية الأم مثل سلطانية والعراق العجمى اللتين كانتا تحت حكم حاجى طغاى، وبغداد والعراق العربى يحكمها أمراء قوم «الأويرات»، والولايات الرومية (آسيا الصغرى) يحكمها الأمير «أريتا» وملك أشرف وهو ابن تيمور تاش ابن الأمير نوروز، وفارس تحت حكم أمراء آل اينجو ويزد تحكمها أسرة آل المظفر، وقهستان يحكمها عبد الله بن أمير مولاى، وهراة وجزء من خراسان يحكمها آل كرت، وجرجان وجزء من خراسان يحكمها طغاتيمورخان وأيضاً السربداريون.

أما كرمان وأصفهان فكان بهما أمراء محليون يتولون حكمها.

وبعد أن استقرت ساتى بك على العرش الإيلخانى، ظهر شبح الحرب بين

الأميرين شيخ حسن كوجك وشيخ حسن بزرك، وتدخلت الملكة ساتى بك لفض نزاعهما وأصلحت فى كثير من الأحيان ما بينهما، ولكن شيخ حسن بزرك نقض العهد بعد ذلك، وحرض طغاتيمور خان على محاربة حسن كوجك، فما كان من الأمير كوجك إلا أن قام لملاقاة طغاتيمور خان.

ولكن القتال لم يدر بين الطرفين وانتهت الفتنة بعد أن أقنع «كوجك» طغاتيمور خان أن شيخ حسن بزرك هو الذى يحرض على الفتنة، وهو الذى يجب محاربته وأن ساتى بك سوف تتزوجه ويكون لهما العرش الإيلخانى وحدهما.

وأرسل طغاتيمور خان برسالة إلى «ساتى بك» ويناشدها الوئام ونبذ الخصام، فكانت تلك الرسالة سبباً فى نقض شيخ حسن بزرك لعهده، وأخمد الفتنة التى كانت قد أثارها شيخ حسن كوجك، وفى الوقت نفسه تعبت ساتى بك من دسائسه، فقربت إليها شيخ حسن بزرك.

ووجد شيخ حسن كوجك أن غريمه شيخ حسن بزرك الجلايرى قد انتصر عليه، وأصبح صاحب الكلمة العليا فى المملكة، وأنه لابد أن يعمل شيئاً للقضاء على التحالف الموجه ضده فأعلن عداءه للملكة ساتى بك، وصرح بأن منصب الإيلخان لا يليق إلا للرجال.

وأحضر أحد أحفاد يشموت بن هولاكو ويدعى «سليمان» ونصبه ايلخانا ولقبه باسم «سليمان خان»، وأجبر ساتى بك على الزواج منه.

ولم يقبل شيخ حسن بزرك هذا الوضع، فقام بتنصيب «عز الدين» ابن ألافرنك بن كيخاتو ايلخانا ولقبه باسم «شاه جهان تيمور خان» واختار لمنصب الوزارة شمس الدين زكريا.

وبذلك أصبح يحكم ايران ايلخانان هما سليمان خان وشاه جهان تيمور خان للخلاف بين شيخ حسن كوجك وشيخ حسن بزرك.

وأخيراً التقى الفريقان المتنازعان على الايلخانية فى اليوم الأخير من شهر

ذى الحجة عام ٧٤٠ هجرية قرب نهر «جغاتو» عند مراغة وانهزم شاه جهان تيمور خان [١]وشيخ حسن بزرك، وتوجه الأخير إلى بغداد، وبعد عزل شاه جهان تيمور خان رسميا استقل شيخ بزرك ببغداد والعراق وأسس الدولة الايلكانية أو الجلايرية[٢].

هذا وقد نصب الشيخ حسن بزرك الجلايرى شاه جهان تيمور ايلخانا فى الخامس من ذى الحجة سنة ٧٣٩ هجرية، وخلعه أيضاً فى ١٧ ذى الحجة سنة ٧٤٠ هجرية. وليست له أفعال تذكر تستحق التسجيل.

وقام الأمير شيخ حسن كوجك بتنصيب سليمان خان ايلخانا.

أما حكمه فكان يشمل أقاليم أران وآذربيجان وكرجستان والعراق العجمى.

أما شيخ حسن برزك الجلايرى الذى أصيب بهزائم متتالية من منافسه حسن كوجك انتقل إلى بغداد وأعلن استقلاله فيها عام ١٣٣٩ وخلفه ابنه أوليس الذى نجح فى ضم تبريز إلى أملاكه ثم خلفه ابنه أحمد عام ١٣٨١ م وقد تصدى السلطان أحمد لتيمورلنك عند زحفه على بغداد عام ١٣٩٣ م - ٧٩٥ هـ.

ولم يهنأ حسن كوجك بانتصاره وتوطيد أركان حكمه، فإنه واجه فى عام ٧٤١ هجرية فتنا وثورات وتكتلات سياسية وعسكرية ضده، من بينها ثورة الأمير سيورغان بن ساتى بك من الأمير جوبان الذى اتحد مع طغاتيمور خان، وأيضاً ثورة الأمير «على كاون» أخ طغاتيمور خان الذى تمكن من الاستيلاء على أبهر وشرع يناوش قوات شيخ حسن كوجك.

وكان شيخ حسن كوجك من القوة بحيث يمكنه مواجهة أعدائه مجتمعين،

---

(١) اسمه الأصلى عز الدين ابن الأمير الافرنك بن كيخاتون خان واعتلى العرش الايلخانى ولقب باسم «شاه جهان تيمور خان». وكان رجلاً ضعيفاً خاملاً ولم يكن إلا آلة فى يد شيخ حسن بزرك الجلايرى، ولم تكن له معرفة بفنون السياسة والحرب مما كان سبباً فى هزيمته والإطاحة بعرشه وإحلال النكبة بحليفة الجلايرى.

(٢) انظر تاريخ المغول - عباس إقبال اشتيانى.

وكان الجميع يرهبونه لقوته وسطوته ويتمنون القضاء عليه حتى يستريح الناس من بطشه وقسوته فكان مقتله على يد زوجته غيلة، فى ٢٧ رجب عام ٧٤٤ هجرية بضربه بخنجر فمات على الفور.

وعندما علم أعوان شيخ حسن كوجك ما حل بزعيمهم وما فعلته زوجته «عزت ملك» وخيانتها لزوجها قتلوها على الفور، وقطعوها إرباً إرباً.

وبعد مقتل شيخ حسن كوجك، قام سليمان خان بتقسيم أموال شيخ حسن كوجك وممتلكاته على أمرائه، وكما كان سليمان خان ألعوبة فى يد شيخ حسن كوجك أثناء حياته فإنه بعد وفاته أصبح آلة فى يد ثلاثة من الأمراء الجوبانيين، وهم سيورغان وياغى باستى أبناء الأمير جوبان، وملك أشرف حفيد جوبان.

وقد استمروا يحكمون ما تحت أيديهم من مناطق فترة إلى أن نشب بينهم الخلاف والقتال.

وقامت الحرب بين المتنازعين وكان النصر فيها حليف ملك أشرف الذى أطاح بهم جميعاً وأحضر شخصاً يدعى «أنو شيروان» وهو غير معلوم الأصل والنسب، وأجلسه على العرش الايلخانى وتلقب بالعادل، وانتهى عهد سليمان خان الحاكم الذى لا يحكم.

وكان أنو شيروان العادل آخر من حكم من الأسرة الايلخانية، وقد نصبه ملك أشرف الجوبانى ايلخانا فى ٢٤ المحرم سنة ٧٤٤ هجرية بعد انتصاره على أعدائه.

وكان أنو شيروان رجلاً مغموراً غير معروف حتى لأمراء البيت الايلخانى الحاكم، ولم يطمع فى منصب ولا نفوذ بعد أن وجد الأمور تسير من سىء إلى أسوأ وآثر السلامة.

واستمر حكم أنو شيروان العادل حتى توفى فجأة فى الرابع والعشرين من رجب عام ٧٥٦ هـ حيث تذكر بعض المصادر أن ملك أشرف قتله وتخلص منه.

واستمر ملك أشرف يحكم ما تبقى من ولايات بعد وفاة أنو شيروان مدة ثلاث سنوات إلى أن قتل فى ١٧ صفر ٧٥٩ هـ بأمر «جانى بيك» ملك دشت

القبجاق الذى حرض أهل تبريز على القيام ضد ملك أشرف والإطاحة به ووجد أهالى تبريز الفرصة سانحة لأخذ ثأرهم من ملك أشرف الجوبانى الذى مكث خمسة عشر عاماً يظلمهم ويسومهم سوء العذاب.

وكان طغاتيمور خان ايلخان المناطق الشرقية من الدولة الايلخانية قد توفى سنة ٧٥٤ هجرية، بعد أن حكم سبعة عشر عاما.

عام ٧٥٦ هجرية - هو العام - الذى انقرضت فيها الأسرة الايلخانية التى حكمت ايران قرابة قرن من الزمان مليئة بالفتن والثورات والمعارك بين الأمراء المغول، فكان هذا هو عصر تيمورلنك.

■ ■ ■



5

بداية المشوار

- هالة القداسة حول الطاغية أو الحكام أصحاب المقام الرفيع.
- شخصيات وأحداث أثرت فى تيمورلنك وكانت بداية مشواره الحقيقى نحو الإمبراطورية الجديدة للمغول.
- تيمورلنك وبداية تكوين الإمبراطورية المغولية الثانية، واعتلاؤه عرش المغول.
- الخطوات الأخيرة قبل الجلوس على العرش.

وضع هالة من القداسة
حول الطاغية تيمورلنك

انقسم العالم القديم أو المجتمع القديم القبلى والحضرى إلى قسمين هما أحرار وعبيد وانقسم الأحرار إلى قسمين آخرين هما أسياد وأحرار عاديين.

أما الأسياد فهم القادة لشعوبهم المقهورة وقد وضعوا هالات من القداسة حول نسبهم وادعاءاتهم بأنهم جاءوا من أنساب تنتهى إلى الآلهة المقدسة التى يعبدها الناس فى حينها كما كان يدعى الفراعنة الحكام المصريون أنهم ينتمون إلى الإله آمون الذى كان يعبده المصريون وأن الفرعون هو إله وهذا ما ادعاه فرعون موسى حين قال لشعب مصر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: ٣٨).

وفرعون طاغية مثله مثل كل الحكام الطواغيت أضل شعبه قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (طه: ٧٩).

وفرعون هو النموذج المثالى لكل طاغية سبقه أو جاء بعده وقد ذكره المولى جل وعلا فى القرءان الكريم كما ذكر غيره أيضاً مثل طاغية إبراهيم عليه السلام ملك بابل - العراق - النمرود دون ذكر اسمه، فكل هؤلاء الطواغيت ادعوا أنهم جاءوا من غير سلالة البشر وأنهم آلهة أو أبناء آلهة وربما كان آخر هؤلاء الحكام الذين أدعو أنهم انصاف آله هو إمبراطور اليابان الراحل الذى عاصر الحرب العالمية الثانية والذى أصدر مرسوماً ملكيا قبل موته بإلغاء هذا الادعاء بأنه نصف بشر ونصف إله!!

وإذا كان هؤلاء الحكام فى الماضى قد زعموا أنهم آلهة أو أنصاف آلهة فإن طواغيت العصر الحديث زعموا أنهم من غير البشر العاديين وكذلك نظرة إلى

أعوانهم من رجال السلطة ورجالاتها الذين يرهبون بهم شعوبهم المقهورة، كلهم يدعون أنهم أسياد غير عاديين حتى إنهم يضعون لأنفسهم ألقابا تبارى الألقاب القديمة.

وهكذا فعل تيمورلنك حين أراد أن يعتلى عرش المغول وقد ساد وقتها أن نسل جنكيزخان وهولاكو أو أبناء جنكيزخان هم الورثة دون غيرهم الذين لهم الحق فى اعتلاء عرش الملك، لأن تيمورلنك لم يكن من أصل ملوكى ولا ينتمى إلى آل جنكيزخان فزعم أنه من نسل جنكيزخان من ناحية الأم، بل زعم أنه من نسل الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه.

ويوجد على شاهد قبره فى مدينة سمرقند ذكر نسب تيمورلنك أنه يلتقى مع نسب جنكيزخان عند الجد تومان خان ويصل إلى امرأة حملت بالجد الثالث عشر لتيمور حيث يدعى أن نورا دخل عليها من أعلى الباب وتمثل لها بشراً وذكر أنه من أبناء الإمام على رضي الله عنه!!

بل وذهب الأمر إلى أبعد من ذلك حين ذكر تيمورلنك فى مذكراته التى دونها أو أملاها أن والده طرقاى ذكر أن نسبه ينتهى إلى يافث بن نوح عليه السلام والذى ينتهى إليه نسب كل الأتراك الذين ينتمى إليهم المغول، وأن أحد أحفاد يافث وهو تومان خان اعتلى عرش تركستان ورزق بولدين توأمين هما قجولاى وقابول وقد أشير إليهما على شاهد قبر تيمور.

وتذكر القصة المفتعلة أن «قجولاى» حين كبر وبلغ مبلغ الرجال رأى فى حلمه ذات يوم بنجمين يلمعان فى صدر أخيه التوأم «قابول» وقص حلمه على أبيه الحاكم الذى قصه على رجال دولته كى يقرون لابنه «قابول» أن يكون الملك فى ذريته وأن تكون الوزارة فى ذرية أخيه «قجولاى».

ومما جاء فى مذكرات تيمور الشخصية عن أبيه أن أحد أجدادهم ويدعى «أن قراجار» هو أول من اعتنق الإسلام وهو الذى جاء بقبيلة «برلاس» إلى سهل كيش فى وادى نهر كشقداريا.

وقراجار هو الجد الرابع لتيمورلنك كان صهراً لجغطاى بن جنكيز خان وحمل لقب كودكان أى صهر الملوك.

أما جد تيمورلنك المباشر فهو بركل الذى كان قائداً فى جيش دولة أبناء جغطاى بن جنكيزخان ثم تفرغ لإدارة أملاكه من منطقة كيش موطن قبيلة «برلاس».

كل هذا ليس إلا مجرد كلام لا أساس له إلا إضفاء صفة القداسة والتميز لتيمورلنك حيث يستطيع أن يستولى على الحكم من سلالة جنكيز خان وأن تيمورلنك ذو أصول عرقية والتزاماً بشريعة جنكيزخان إلياسا التى نصت أيضاً معاملة أبناء الإمام على رضى الله عنه معاملة خاصة كما ذكر الكثير من المؤرخين القدماء[1].

أما أم تيمورلنك وتدعى تكينة غاتون وفقاً لرواية المؤرخ عربشاه ينتهى إلى جنكيز خان وهذا ما ادعاه أيضاً تيمورلنك فى حياته ورسائله إلى السلطان العثمانى بايزيد من ادعائه أنه من سلالة أسرة الإيلخانيين التى ينتهى نسبها إلى هولاكو حفيد جنكيز خان.

هكذا أخفى تيمورلنك على نفسه صفات القداسة والمقام الرفيع ليجد مسوغاً فى اعتلاء ملك المغول ورغم ذلك كان يضع على العرش بعد الجلوس عليه أحد أبناء سلالة جنكيز خان أو أسرته حتى يضيف على حكمه الشرعية.

وكانت مدينة كيش التى نشأ فيها تيمورلنك تسمى بالمدينة الخضراء وكان بيت أبويه بيتاً عادياً من الخشب والطين اللبن مثل بيوت القرويين.

ومثل الأطفال أقرانه نشأ تيمور بين الخيول والحديث عن الحروب والمعارك وكان يصطاد مع أقرانه الثعالب والطيور وكان قائداً وسط أقرانه منذ نعومة أظافره حين يلعبون لعبة الحرب والقتال وهى اللعبة التى لا يزال الأطفال يلعبونها فى معظم البلاد الشرقية حتى الآن ولكن بأسماء مختلفة.

(١) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزى، وتيمورلنك ـ د. مظهر شهاب، تيمورلنك ـ محمد أسد الله صفاء.

وفى هذه السن يمكن للحاذق اللبيب تحديد شخصية الطفل حين يصبح رجلاً فقد كان تيمور قائداً وطفلاً ورجلاً، ساعده فى ذلك كون والده رئيس لقبيلة «برلاس» المغولية وكان يرى أصحاب العمائم الخضراء من رجالات الدين الإسلامى الصوفى فاحب الزعامة الدينية والدنيوية.

وكانت قبيلته تنتمى إلى الأتراك واكتسبوا التسمية المغولية بعد انضمامهم تحت لواء جنكيز خان حين وحد القبائل المغولية والتركية ثم حاربوا مع ابنه «جوجى» وأبنائه وزعماء القبيلة الذهبية المغولية فى روسيا والقرم وكان رجال القبيلة رجال حرب يموتون فى ساحة القتال دوماً.

وكان تيمورلنك مثل بقية الأطفال يسمع من أبيه قصصاً عن أسلافه سادة العالم القديم وأمجادهم وحكى له قصة جنكيز خان البطل القومى المغولى الذى وحد قبائل المغول الهمج وصنع لهم إمبراطورية ارتبطت باسمه وأسماء أولاده من بعده وكيف أنه قسم إمبراطوريته الشاسعة بين أولاده الأربعة الذين كانوا من أم واحدة هى زوجته الأولى بورتارى وأن أرض قبيلة البرلاس كانت من نصيب جغطاى ابن جنكيز خان.

وقال له: وقد انصرف أولاد جغطاى وأحفاده إلى الخمر والنساء والصيد واضطروا مع مرور الزمن إلى الانسحاب إلى الجبال فى الشمال وهناك يعيش الخان منذ وقت طويل منصرفاً إلى الحفلات والصيد تاركاً الحكم فى سمرقند إلى السيد المقلب بصانع الملوك.

ولذلك حين قام تيمورلنك ببناء إمبراطوريته التى أعاد فيها حكم المغول على العالم مرة ثانية بالاحتفاظ بأحد أحفاد «جغطاى» كصورة على العرش لشرعية الملك الذى أسسه جنكيز خان.

رغم أن والده أوصاه باتباع شريعة الإسلام التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم واحترام الفقهاء ونيل بركة رجال الصوفية.

وكان تيمورلنك الشاب الذى بلغ من العمر السابعة عشرة من عمره كثير

التردد على المساجد ومجالس العلماء والفقهاء وكان قد ورث عن أبيه بعض الماشية والعبيد وكان طويل القامة بهى الطلعة ذا رأس كبير عريض الأكتاف والجبهة كل ملامحه تدل على القوة والحيوية وكان قليل الكلام لا يحب المزاح والهزل ويعشق الجد والصرامة إنها صفات الزعامة والقيادة.

■ ■ ■

شخصيات وأحداث أثرت فى تيمورلنك وكانت بداية مشواره كإمبراطور للمغول

لا شك أن هناك شخصيات وأحداثاً تؤثر فى حياة الناس بوجه عام وأيضاً فى حياة الزعماء والقادة بوجه خاص.

وكذلك كان تيمورلنك وهو بعد من سلالة ما نسميهم بالطبقة الوسطى من الشعوب أو الطبقة المتوسطة هناك أحداث حدثت له فى شبابه وهو فى أرض قبيلته وقد توفى والده وورث عنه بعض الماشية والعبيد يفكر فى أحوال الناس فى قبيلته والمغول بوجه عام وقد أدى النزاع بين الأمراء والقادة إلى تفكك الإمبراطورية التى كونها جنكيز خان وأضاعها أحفاده من بعده وخاصة بلاد ما وراء النهر إيران وما حولها وبعدها حتى تقلصت تلك الدولة المغولية الجغطائية التى من سلالة جغطاى بن جنكيز وأسسها وزادها هولاكو.

عام ١٣٤٠م اندلعت ثورة خراسان ضد أعداء الإسلام من النسطورية المسيحية والكاثوليكية المسيحية وغيرهم وقاد هذه الثورة الأمير المغولى خليل وطارد خصومه وطردهم من البلاد وعاد إلى سمرقند واتخذها عاصمة له وقد ساعده فى ذلك الملك الخراسانى معز الدين آل كرات لكن الوثنيين من المغول فى المناطق الشرقية ثارت ضده وانقسمت البلاد إلى قسمين لكل منهما ملك أحدهما وثنى والآخر مسلم.

ففى المناطق الشرقية حول بحيرة إيزيك كول كان الملك الوثنى من المغول واستقر الأمير خليل على ناحية البلاد لكن الملك معز الدين آل كرات رفض التبعية له وأعلن الحرب عليه واستطاع أسره.

وجاء عام ١٣٤٢م وتولى أحد أحفاده جغطاى وهو الأمير قازان خان حكم بلاد ما وراء النهر واستطاع القضاء على الملك الخراسانى حسين آل كرات ولكنه لم يستطع القضاء على نفوذ الطبقة الأرستقراطية العسكرية من الأتراك الذين كانوا يشاركون الخان المغولى فى كل شىء من الغنائم وحكم البلاد وكان لكل منهم قبيلة يحكمها ومنها إقطاعية قبيلة «برلاس» التى منها تيمورلنك وكان هؤلاء الأمراء الإقطاعيون هم الحكام الحقيقة لبلاد ما وراء النهر.

وفى عام ١٣٤٥م قام هؤلاء الأمراء بثورة ضد الخان المغولى قازان خان وتزعم الأمراء الأمير قازغان وكان شجاعاً جريئاً ينتمى إلى إقطاعية كوتشين «قاوجين» واستطاع بعد صراع مرير مع قازان خان أن يستولى على البلاد وأسر الخان وقتله بعد سجنه عامين.

واختار قازغان ومن معه أميراً من نسل أوغوراى ليكون خاناً صوريا وترك مقاليد الحكم لقازغان حيث تقتضى قوانين جنكيز خان «الياس» أن يكون الحاكم الخان من نسل جنكيز خان ولم يستمر هذا الخان كثيراً حيث قتل بعد عامين وخلفه أحد أحفاد جغطاى وهو بويان قولى وظل قازغان الحاكم الفعلى للبلاد.

وفى هذه الأثناء والسنوات أبان حكم قازان ازدهرت بلاد ما وراء النهر واتسعت حدودها وامتد من السند إلى خراسان إلى أقصى حدود تركستان شمال سيرداريا واستقلت عن القسم الشرقى لبلاد دولة جغطاى.

وأطلق على قازغان اسم صانع الملوك بوصفه الحاكم الفعلى وليس الرسمى الإسمى حيث إنه كان يأتى بالملوك من أبناء جغطاى بوصفهم الحكام الشرعيين حسب شريعة جنكيز خان التى التزم بها المغول رغم إسلامهم.

وكان تلك الأحداث مقدمة لظهور تيمورلنك حيث إن قازغان صانع الملوك هو الذى استدعى تيمورلنك من قبيلته وقربه إليه كما سيأتى.

فقد كان تيمورلنك ابن أحد رؤساء قبيلة برلاس قد اشتد وبلغ مبلغ الشباب

بعد وفاة والده وأصبح مكرماً من أهل قبيلته وقد تجمع حوله الأصدقاء يقضى وقته فى الصيد خلال دروب الجبال والصحراء القاحلة حتى جاء ذات يوم رسولاً يدعوه إلى مقابلة الأمير قازغان صانع الملوك.

وعلى جناح السرعة لبى تيمورلنك طلب قازغان وقد انتقى أفضل خيوله وبصحبته خادمته ويدعى عبدالله واتجه نحو الجنوب فى طريق نهر أمودرايا وذلك عام ١٣٥٦م.

وكانت تلك البداية الحقيقية فى مشوار تيمورلنك نحو تكوين إمبراطوريته المغولية.

كان قازغان لا يلتزم بدين معين وإنما بتعاليم جنكيز خان ولهذا قال لتيمور خان حين استقبله وعلمه أول درس فى حياة ملوك المغول فقال له:.

«لقد استعضنا هنا عن الأديان بالإخوة».

ثم ألحقه بحاشيته وخلع عليه من الهدايا والمنح ووضعه تحت التدريب الشاق على الفروسية التى أظهر فيها براعة فائقة.

وهكذا أصبح تيمور ذا مكانة عالية وسمعة طيبة فى مدينة سالى سراى عند قازغان الحاكم الفعلى للبلاد وبالخصوص حين أمره قازغان بمطاردة بعض الخيول التى فرت نتيجة مهاجمة بعض الغزاة على مراعيها وكان هؤلاء الغزاة من الغرب.

وقاد تيمور جماعة من الشباب وانطلق لاسترجاع الخيول وعندما أبصر الغزاة ومعهم الخيول تصدى لهم الغزاة واستطاع تيمور ببراعة وحكمة قتالية من هزيمة الغزاة واسترداد الخيول فكافأه قازغان بأن أعطاه كنانته الخاصة وجعله من خاصته.

فقد كان قازغان وتيمور من غير سلالة أحفاد جنكيز خان الذين لهم الحق فى الجلوس على كرسى الخان ولكنه نجح فى فرض احترامه على القبائل وكان كل منهما من ذوى العاهات فتيمورلنك كان أعرج لإصابة لحفت إحدى قدميه

فى إحدى المعارك أو كما قيل فى إحدى رحلات الصيد وكذلك قازغان أصيب بالعور فى إحدى عينيه لإصابته بسهم فيها.

ورأى قازغان فى تيمور امتداداً طبيعيا له وسنداً قويا وقد حظى بحب الفرسان المغول المحاربين وظهرت عليه علامات القيادة والثقة فى النفس حيث إنه عند الأزمات يكون هادئاً مفكراً ومغامراً شرساً.

ونتيجة لحب قازغان لتيمورلنك فقد زوجه من إحدى حفيداته وسليلة لعائلة مالكة فى خراسان وهى أولجاى تروكان آغا وذلك عام ٧٥٧هـ، وأنجب منها ولداً هو جهانكير.

ولقبه قازغان بلقب بيك فسمى تيموربيك وعينه قائداً للألف.

ولكن المسيرة التقدمية لتيمور توقفت حيث أغتيل أستاذه ومعلمه قازغن على يد بعض معارضيه أثناء قيامه برحلة صيد ولم يكن دعم تيمورلنك وذلك عام ١٣٥٨م وكان قاتله هو زوج ابنته واستطاع أعوان قازاغان بالقبض على القتلة وقتلهم وقام بتلك المطاردة تيمورلنك وتم دفن قازغان فى الغابة جنوب مدينة سالى سراى.

ولم تستقر الأحوال السياسية بعد مقتل قازغان حيث إن ابنه عبدالله كان صغير السن قليل الخبرة فى الحكم فثار عليه كل من «حاجى» برلاس زعيم قبيلة برلاس وعم تيمورلنك وزعيم قبائل أندوخود وسيورغان الأمير بايان سلدوز.

ولم يستطع ابن قازغان الصمود أمام المعارضين له ففر إلى الجبال وعاش فيها وترك الحكم والبلاد.

ووجد تيمور نفسه فى المدينة معزولاً مع نفر من رفاقه ولم يستطع الوصول إلى كرسى الحكم لاحتدام الصراع بين المتنافسين.

شجع عدم الاستقرار فى بلاد ما وراء النهر فى سمرقند وسالى سراى القائد المغولى فى منطقة منغولستان تغلق تيمورخان فى غزو البلاد عام ١٣٦٠م

على رأس جيش فضم البلاد إلى حكمه وهرب من أمامه كل المتنازعين على الحكم وبقى تيمورلنك وقد أبدى استعداده للتعاون مع تغلق تيمورخان ودخل فى طاعته بدلاً من مقاومته وكانت تلك مرحلة أخرى هامة فى مشوار تيمورلنك نحو السلطة وذلك بعد لقائه بهذا الخان الذى أراد أن يوحد شطرى دولة المغول الجغطائية الشرقية والغربية.

كان تيمورلنك حينها قد بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً وقد بدأ الطموح يدب فى عروقه واشتعل الحماس فيه وثارت ثورة الشباب فيه لكنه ساده الحزن على ما آلت إليه بلاده إثر التنازع والصراع على السلطة.

ورأى تيمورلنك بعد استشارة أحد رجال الدين وهو الملا زين الدين أن يذهب إلى الخان الجديد ويتعاون معه وهذا ما فعله بعد أن قام بإرسال زوجته وطفلها إلى أخيها أحد ملوك أفغانستان.

قابل تيمورلنك الخان تغلق تيمور فى مقره وجهاً لوجه وكان مقاتلاً بارعاً مثل جنكيز خان وسلالته وحول أمراء المغول فقدم له فروض الولاء والطاعة التى تقدم للملوك فى زمانه وقال له:

يا أبى ومليكى وسيد الجيش أنا تيمور قائد رجال البرلاس من المدينة الخضراء.

وقدم له تيمور الهدايا وعرض عليه خدماته فأعجب به الخان ورأى أن يستعين به فى حزم الأمور المنفلتة لعل باقى الأمراء المنشقين أن ينضموا إليه.

وأمر الخان تغلق بتعيين تيمورلنك رئيساً لقبيلة البرلاس التى كان يرأسها عمه المتمرد على الخان وبهذا ذاع صيته وقويت شوكته.

لكن الأمراء المنشقين المتمردين على الخان عادوا إلى الثورة وعاد عمه «حاجى برلاس» من منفاه وتحالف مع زعيم قبيلة جلائر بايزيد واتفقا على التخلص من تيمورلنك.

وأعلن بايزيد جلائرى نفسه حاكماً على البلاد وأرسل كل من عم تيمورلنك وبايزيد جلائرى إليه كى يجتمعا به للتداول فى أمور البلاد وكانا ينويان قتله

والإيقاع به ولكن تلك المحاولة لم تفلح وقد اكتشف تيمور تلك المحاولة فى اللحظات الأخيرة وأدت هذه المحاولة إلى صراع وقتال بين تيمورلنك والمتآمرين على قتله.

كان مع تيمور وقتها بضعة آلاف من الجنود فاشتبك مع عمه «حاجى برلاس» الذى صار ينازعه زعامة القبيلة ويتطلع لما هو أكبر من ذلك ودارت رحى المعركة بينهما على طريق سمرقند واستطاع تيمورلنك هزيمة عمه وأنصاره ولكنه لم يحسم المعركة لصالحه فى نهاية الأمر حيث انحاز كثير من جنوده إلى جانب عمه مما اضطره إلى الانسحاب إلى مدينة ترمذ الواقعة على نهر أموداريا وتقابل مع شقيق زوجته الأمير حسين وكان الأخير قد وصل مع قبائله وأنصاره من أفغانستان.

وفى هذه الأثناء كان الخان تغلق ما زال خارج بلاد ما وراء النهر واستحثه على العودة لضبط الأمور التى انفلتت منه بتمرد عمه وغيره من المتمردين الذين يزداد عددهم يوماً بعد يوم.

وبالفعل عاد الخان تغلق تيمور من عاصمته ألماليك فى منتصف عام ١٣٦١ م لضبط الأمن فى البلاد وقد اشتد حنقه على معارضيه فأمر بإعدام بايزيد جلائر وهرب عم تيمور حاجى برلاس مع أنصاره إلى الجنوب حيث قتل هناك على يد قطاع الطرق وهكذا خلت الساحة من منافسى تيمورلنك ولم يبق إلا نسيبه شقيق زوجته الأمير حسين حفيد الخان الراحل قازغان الذى قاد ثورة ضد الخان تغلق[١].

وهكذا استقرت الأمور وانضبطت تحت حكم الخان تغلق الذى أعلن تعيين ابنه إلياس خواجه نائباً عنه فى حكم بلاد ما وراء النهر وجعل تحت تصرفه جيشاً بقيادة الجنرال بيكجيك.

---

(١) كون الأمير حسين إمارة له فى بلاد أفغانستان شملت كابل وبلخ وكوندوز بعد انتهاء حكم ابن عمه عبدالله بن قازغان فى سمرقند ولكنه كان يتطلع إلى أن يكون الخان الأكبر على المغول مثل غيره من الأمراء.

وحزن تيمورلنك من جعله تحت إمرة وسلطة الشماليين المغول لكن الخان تغلق ذكر تيمورلنك بتعاليم جنكيز خان التى تقتضى أن يكون الحكم فى أولاد جنكيز خان من زوجته الأولى وعلى الآخرين أن يطيعوهم فقرر تيمور الثورة على تلك الأعراف القديمة والخان أيضاً فقد كان شديد الطموح للوصول إلى كرسى الخان الأكبر للمغول.

وكانت بداية مشواره الحقيقى نحو الوصول إلى غايته وهدفه المنشود ولم يكن هذا المشوار سهلاً مفروشاً بالورود وإنما كان مليئاً بالصعاب والأشواك التى ساعدت فى إظهار قوة وعزيمة هذا الساعى إلى كرسى الخان.

■■■

تيمورلنك ثائراً

ومـــا نيل المطالب بالتـــمنى ولكن تُؤخــذ الدنيـــا غـــلابا

هكذا قال أمير الشعراء أحمد شوقى.

وهذا ما توصل إليه تيمورلنك حين وجد أن الانضواء تحت لواء الخان تغلق تيمور لن يحقق له ما أراد، فقد أصبح موظفاً فى دولته تحت قيادة من اعتقد بالجزم أنهم محتلون لبلاده وأنه أحق بالقيادة منهم وقد خلت الساحة من الزعامات القوية التى نافسته على ذلك.

وكان لزاماً عليه أن يظهر بمظهر الثائر الباحث عن حقوق الشعب المقهور.

فقد كان نائب الخان تغلق وهو فى نفس الوقت ابنه (إلياس خواجه) والجنرال بيكيجيك لهما سمعة سيئة وقد ضجر الأهالى فى سمرقند وغيرها من البلاد المجاورة من أفعالهم التى فاقت الحدود، فقد قامت القوات المغولية تحت قيادة الجنرال وبعلم نائب الخان بالسلب والنهب والخطف والقتل.

وارتفعت الأصوات فى المساجد محتجة على تلك الأوضاع وهذا الجبروت من جنود «تغلق تيمور» وتيمورلنك يعلن للجميع أن يرفع تقاريره إلى الخان تغلق ويخبره ما يحدث فى البلاد ولكنه لا يفعل شيئاً.

وهكذا ارتدى تيمورلنك ثوب الثائر المدافع عن حقوق الشعب المقهور حتى حانت الفرصة الحقيقية للثورة حين خطف الجنود المغول مئة فتاة من سمرقند وعددا من رجال الدين لبيعهم عبيداً!!

وتوجه تيمورلنك إلى نائب الخان وقائده الجنرال يطلب منهما إطلاق سراح المختطفين، فرفض طلبه كعادة الحكام الطغاة حين يخرج عمالهم وجنودهم عن

حدود القانون مع أفراد الشعب.

فخرج تيمورلنك إلى الناس وأعلن الثورة على الحاكم وجمع الأتباع وانطلق ليحرر الأسرى بالقوة، فأرسل ابن تغلق إلى أبيه يخبره بثورة تيمورلنك فأصدر الخان الأوامر بالقبض على تيمورلنك وقتله بتهمة الخيانة العظمى والتمرد على الحاكم.

وعلم تيمورلنك بأمر اعتقاله وقتله ففر هارباً إلى الجبال جنوب مدينة سمرقند يتحصن بها وقد تحقق له ما أراد فى الظهور أمام الناس أنه نصير لهم ضد الطغاة ومدافعاً عن دين الإسلام وعنهم.

ظل تيمورلنك فى الجبال ومعه زوجته وبعض رفاقه الذين انضموا إليه ثمانية أيام حتى أرسل إليه نسيبه الأمير حسين يعرض عليه التحالف والانضمام إليه.

ورأى تيمورلنك أنه من الأفضل التحالف مع الأمير حسين الذى هزم من تغلق وأصبح مثله مطارداً، ولاسيما أن ثورته لم تحقق له ما أراد ولم ينضم إليه إلا القليل من الأهالى، وبالتالى فإن التحالف مع الأمير حسين مرحليا أفضل فتوجه إليه عام ١٣٦٢ هـ.

كان الأمير حسين حفيد قازغان يرى أنه أحق بالملك من غيره ولكنه هزم من الخان تغلق فى ممر باب الجديد، فكان طريداً فى صحراء خوارزم حيث توجه إليه تيمور.

واجتمع تيمورلنك بشقيق زوجته وأجمعوا أمرهما على السير غرباً نحو طريق القوافل والمدن الكبيرة القريبة من بحر خوارزم ـ بحر أرال ـ، ووصل الركب إلى واحة خيفا واجتمعا بحاكم المنطقة «توكيل بهادور» وعرضوا عليه الاشتراك معهما فى الثورة ضد الخان تغلق تيمور ومغول الشمال، لكن الحاكم بطبيعة الحال رفض طلبيهما وحاول القبض عليهما ولكنهما استطاع الهرب منه وجرت معركة بين الثوار والحاكم وجنوده الذى كان أكثر منهم عدداً، وقتل كل أتباع تيمورلنك والأمير حسين فى تلك المعركة.

واستطاع تيمور والأمير حسين النجاة ومعهما زوجاتهما وخادم تيمور.

أفاق تيمورلنك بعد تلك المعركة مع حاكم واحة خيفا ولم يبق معه إلا شقيق زوجته وثلاثة من رفاقه وهم فى الصحراء مطاردين ثم قرر أن يمضى وحده مع زوجته وخادمه وفارق نسيبه الأمير حسين، وأمر من تبقى من رفاقه الثلاثة بالانصراف والتفرق حتى لا يشعر بهم أحد ففعلوا.

ولم يكن معهم من الخيول ما يمكنهم من مواصلة السير إلا مشياً على الأقدام ففعلوا حتى حط بهم المسير إلى أكواخ يسكنها تركمان وهناك تعرف عليه سكان الأكواخ من الترجمان وكانوا من فقراء الناس إلا أنهم أكرموه بما لديهم وقدموا ثلاثة من أحسن خيولهم ودليل منهم ليرشدهم إلى طريق الجنوب.

وفى طريقهم إلى خراسان واجه تيمور ومن معه عقبه أخرى كادت أن تقضى عليهم، وذلك لأنهم بوصفهم مطاردين من الخان فكل الحكام الصغار التابعين للخان ورؤساء القبائل كانوا على استعداد لتسليمهم كما فعل حاكم «خيفا»، فبعد اثنى عشر يوماً تم أسرهم بواسطة رجال قبيلة زعيمها يدعى «على جون غربانى» التركمانى، وأراد رئيس القبيلة أن يستفيد من القبض عليهم بتسليمهم إلى الخان وقبض المكافأة منه.

وتم وضع تيمور وزوجته وخادمه فى السجن الذى كان عبارة عن زريبة للبقر وأقام فيها أكثر من شهرين.

وعلم أخ لرئيس القبيلة التى أسرت تيمور بالواقعة فأرسل إلى أخيه يحذر من مغبة تسليم سيد المدينة الخضراء «تيمور» ونصحه بإطلاق سراحه، ففعل الرجل وأطلق سراحهم وأخذ ما معهم من أموال كهدايا له!! ولم يبق معهم إلا حصان واحد.

وواصل تيمور سيره حتى وصل نهر أموداريا والتقى هناك ببعض مؤيديه واختار منهم خمسة عشر رجلاً وحصل على خيول من أحد الأصدقاء، وأخفى تيمور زوجته المتعبة من السفر والأحداث الأليمة التى مرت بهما فى بعض الضواحى.

وعبر تيمور نهر أموداريا نحو مدينة سمرقند فدخلها ليلاً وأقام بها أكثر من شهر، فلم يلق أذنا صاغية من أهلها الذين رضوا بظلم الخان ورجاله، حتى جاءه بعض المخلصين له من أهل المدينة ينصحه بالخروج لأن عساكر الخان قد علموا بوجوده.

فرحل إلى المدينة الخضراء وعبر نهر أموداريا ونزل فى إحدى القرى القريبة من النهر كى يستجم بها شهراً ويستقبل الأنصار الذى تجمعوا من حوله حتى بلغ عددهم ألف رجل أكثرهم من قبيلته «برلاس» وقد جمع بين هؤلاء الثوار حب المغامرة والتمرد على الظلم الواقع على الناس من مغول الشمال المحتلين لأراضيهم وتزايد عدد أنصار تيمورلنك حتى أنه عانى من توفير الطعام لهم، فقرر الذهاب إلى حليفه وصهره الأمير حسين الذى استقر فى قندهار بأفغانستان.

وبالفعل تم للقاء بين الثائرين الصهرين فى قندهار وتجمع حولهما ستة آلاف مقاتل.

وفى عام ١٣٦٣ م نشبت ثورة فى سستان ضد حاكمها جلال الدين محمود الذى أسرع فى طلب العون من تيمورلنك والأمير حسين للقضاء على هذا التمرد، فما كان منهما إلا الاستجابة لطلبه.

لكن الأمير حسين وجنوده أخذوا يفعلون كما يفعل المغول بالسكان من النهب والسلب، فخشى الحاكم المستنجد منهما، لأنه صار كالذى يستنجد من الرمضاء بالنار.

فقام الحاكم بالإتصال بالمتمردين عليه وصالحهم كى يقاتل جيش تيمورلنك والأمير حسين، فدارت رحى معركة شرسة بين الطرفين انتهت إلى هزيمة الحاكم ومن معه وغنم تيمور ومن معه غنائم كثيرة.

ولكن تيمور أصيب فى معركة سستان بجرح فى ساقه ويده أورثه عرجاً التصق باسمه فعرف من يومها بتيمورلنك أى الأعرج وعمره يومئذ ثمان وعشرون سنة.

وتوجه الأمير حسين إلى الشمال مع قواته تاركاً تيمورلنك مع أنصاره يداوى جراحه فى «أرصوف» بجوار «بلخ» وقد لحقت به زوجته.

وأعاد تيمورلنك صفوف قواته التى زاد عددها بعد انتصاره فى معركة سيستان، لأن الناس دائماً مع الغالب المنتصر، وقد ساعده فى ذلك زيادة طغيان المغول أعدائه.

ولكنه أثناء إقامته فى «أرصوف» جاءته الأخبار أن الأمير حسين صهره دخل فى معركة مع جيش المغول الشمالى، وأنه أصيب بهزيمة، فتحرك إليه تيمورلنك متجهاً نحوه شمالاً وانضم إليه الأنصار والأتباع حتى بلغ تعداد جيشه نحو خمسة آلاف فارس.

وعلم تيمور أن جيش المغول بقيادة الجنرال بيكيجيك أفضل قواد الخان «تغلق» يتحرك على الطريق جنوباً قادماً من المدينة الخضراء - كارش - وأنه يعيث فى الأرض فساداً كعادة المغول، وانضم إليهم عدد من الأمراء المحليين الذى وعدوا نائب الخان الياس الخواجه بالبحث عن تيمور واعتقاله.

فتحرك تيمورلنك للقاء هذا الجيش وإظهار قوته وقدرته العسكرية التى ظهرت بكفاءة غير عادية فى المعركة التى نشبت بين جيشه الصغير وجيش الجنرال المكون من عشرين ألف فارس.

أطلق على هذه المعركة «معركة الجسر» لوقوعها على جسر نهر أموداريا، وكان القائد المغولى بيكيجيك على الضفة الشمالية وجيش تيمورلنك على الضفة الأخرى، وكان العبور للنهر مستحيلاً.

وظل تيمورلنك شهراً يتحرك على طول النهر عله يجد فرصة أو نقطة يعبر منها إلى الجانب الآخر للنهر، واستمرت المناورات بين الطرفين.

واستطاع تيمورلنك أن يعبر النهر من أحد أجزائه المليئة بالحجارة فكانت تلك الحجارة بمثابة الجسر وترك تيمور جزءاً من جيشه على الجانب الآخر تمويهاً لعدوه.

ثم انقض تيمورلنك بقوات على عدوه واستطاع إحداث فوضى فى صفوفه وارتبـاك أدت إلى هزيمـة منكرة لجـيش الخـان «تغلق» وفـروا هاربين، فـقـام تيمورلنك ومن معه من الجيش بمطاردة الفارين.

تجـمعت قوات الخـان فى «قبى ـ متن» على بعـد ٢٤ كم من مـدينة كيش، واتجه تيـمورلنك نحو باب الحديد وأمـر ستـمائة من فرسـانه بقيادة سليمان برلاس بالتقدم نحو العدو فى «كيش» وأثاروا فيها عاصفة من الغبار بأن سحبوا أغـصـان الأشـجـار على الأرض داخل طرقـات المدينة حتى ظن حـاكم المدينة المغولى أن عددهم كبير وأنهم مدد لجيش تيمورلنك مما جعله يترك المدينة ومن معه من الجنود.

وفى مدينة باب الحديد التقى تيمورلنك والأمير حسين ومعه قواته وتعاهدا مرة أخرى على القتال معاً.

واتجه تيمورلنك وحليفه وصهره إلى حيث جيش المغول فى «قبى ـ متن».

ومنذ مـعركـة جسـر النهـر عـلا شـأن تيـمورلنك وشـجع الكثـير من المغـول للانضمام إليه وتزايد الجنود المنضمون إليه.

أما جيش المغول الشمالى كان بقيادة ابن الخان ونائبه إلياس خوجه وكان أكبر من جيش الأميرين تيمور وحسين عدداً وعدة.

واستطاع جيش تيمور وحسين من تحقيق نصر مؤزر وأسـر الياس خوجه وأعـداد كبـيـرة من جنوده وفى هذه الأثناء توفى الخـان «تغلق» فى عـاصـمـتـه «ألماليك».

وأطلق تيمورلنك سراح إلياس خوجه، فانطلق إلى عاصمة أبيه كى يجلس مكانه على عرشى المغول.

وأمر تيمورلنك بإكرام الأسـرى وعرض عليهم الانضمام إليه ولكنهم رفضوا فأطلق سراحهم، فقد أراد أن يحقق السـلام بين طوائف المغول وإقناعهم بتـرك الاقتتال فيما بينهم.

وأصدر أوامر لبعض قوات الجيش بالتقدم نحو سمرقند، وانطلق هو وصهره وباقى الجيش نحو الشمال لملاقاة قوات المغول التى احتشدت على ضفاف نهر «سير داريا» نواحى «جوجند» فما كان من قوات المغول إلا الهروب نحو الشمال بعد عبورها النهر، ودخل تيمورلنك وحليفه سمرقند منتصراً وخرج الأهالى يستقبلونه فرحين بما حقق من انتصارات.

وأصبح الطريق ممهداً لاستقبال خان مغولى جديد بعد موت الخان تغلق وهزيمة جيشه أمام تيمورلنك وحليفه.

ولكن الأمر لم يكن ممهداً أمام تيمورلنك ليصبح خانا على المغول، فقد رفض أبناء أسرة جغطاى بن جنكيزخان أن يتولى غيرهم عرش الخانية وراء النهر وتم اختيار أحد أحفاد جغطاى ويدعى كابل فى منصب الخان على عرش ما وراء النهر.

وتم اختيار إلياس خوجه ابن تغلق تيمور خان على القسم الشرقى من بلاد جغطاى «مغول الجات» ولم يتمكن من بسط نفوذه على الجانب الآخر من بلاد وراء النهر.

ففى أوائل عام ١٣٦٥م توجه الياس خواجه على رأس جيش إلى الجانب الآخر من بلاد جغطاى إلى بلاد ما وراء النهر، كان جيشاً جراراً من فرسان الشمال المغولى كأنهم الأسود تزأر للثأر والقتال.

وفى المقابل تجمعت كل القوى المغولية الأخرى من قبيلة برلاس وأنصار آل سلدوز والجلائر وانضم إليهم تيمورلنك بقواته وتبعه الأمير حسين ولكن هذه المرة منفرداً لم ينضم إلى حليفه وصهره تيمورلنك.

فهاجمت قوات إلياس خواجه فى البداية قوات الأمير حسين ثم هاجموا قوات تيمورلنك واستمر القتال وكان النصر حليف جيش إلياس خوجه وانسحب تيمورلنك بقواته ناحية مدينة كيش وقد قتل من رجاله نحو خمسة آلاف ولم يبق معه إلا ألف فارس وكذلك انسحب حليفه الأمير حسين بعد هزيمته أيضاً.

وضرب جيش الخان إلياس خوجه حصاراً حول مدينة سمرقند وطال الحصار حتى انتشر الوباء بخيول جيش «الياس خوجه» حتى اضطر أن يصدر أوامر برفع الحصار، لأنه خشى هلاك جنوده كلهم بالوباء بعد هلاك الكثير من خيولهم.

وقام تيمورلنك ومن معه بمطاردة الجيش المنسحب خوفاً من انتشار الوباء بالمدينة، وقضى تيمورلنك شتاء عام ١٣٦٥ ـ ١٣٦٦ م بمدينة قارشى القريبة من كيش ثم عاد إلى بيته فى الوادى الأخضر ليجد زوجته أولجاى قد توفيت بمرض مفاجئ.

■■■

الأحداث الأخيرة
قبل الجلوس على العرش

شهد عام ١٣٦٥ انسحاب المغول الجات المحتلين لأراضى إخوانهم المغول الشرقيين من دولة الجغطائيين، وظهر نجما تيمورلنك والأمير حسين حليفه وصهره القديم، فالأول يمثل طبقات الشعب المغولى والثانى يمثل الطبقة الحاكمة المغولية فهو حفيد صانع الملوك.

وكان لابد من الصراع والمواجهة بين الطرفين وكان لازماً على تيمورلنك اجتياز تلك العقبة للوصول إلى عرش الخان وتوحيد صفوف المغول كما فعل جنكيزخان الذى مازالت قوانينه تتحكم فى المغول رغم دخولهم الإسلام!!

كانت كافة الأمير حسين راجحة على كفة تيمورلنك فهو حفيد «قازاغان» الحاكم السابق لمغول ما وراء النهر جنوب نهر أموداريا وكانت تضم بلاد بلخ وقندوز وكابل وأغلب العشائر تؤيده لذلك لأنه من نسل جغطاى بن جنكيزخان وأما تيمورلنك فكان يستمد قوته من الشعب أى عامة الناس وهؤلاء لا يرجحون كفة أى ميزان قوى فى السياسة فى كل العصور لأن هؤلاء العامة يصفقون لمن يجلس على كراسى الحكم ويملك القوة وخاصة فى البلاد الفقيرة والغنية، وبالتالى فإن كفة تيمورلنك حينها كانت الأضعف.

لكن شخصية تيمورلنك الحديدية كانت الأقوى، فقد كان كريم العطاء مع أعوانه وقبيلته كان يعطى لهم كل شىء حتى الأمتعة الشخصية ويقود المعارك بنفسه ويشاركهم فى حياتهم اليومية.

أما الأمير حسين فكان يعيش حياة الأمراء والملوك رغم ما اعتراه فى فترات حياة من أزمات وكوارث وتشريد.

ونظراً لأن العلاقات بين المتحالفين قد توترت وخاصة بعد موت «زولجاى» زوجة تيمورلنك وشقيقة الأمير حسين، وأصبح الصراع أمراً واقعيّاً محتملاً، وكلاهما يسعى للوصول إلى كرسى الخان، وقد شجع الأمراء المغول هذا الصراع بين الطرفين.

دخل الأمير حسين سمرقند بعد خروج مغول الجات منها بوصفه المنتصر الزعيم وكان الشعب فرحاً بالانتصار الذى تحقق، وأصبح الأمير حسين يصدر الأوامر ويفرض الضرائب ويوزع الأراضى وتيمورلنك يقف متفرجاً على ما يحدث لا يفعل شيئاً، بل إنه اضطر لدفع ثلاثة آلاف دينار من ماله الخاص له.

ولم يبق لتيمورلنك سوى واديه الذى يمتد من المدينة الخضراء حتى النهر وانسحب بهدوء إلى الوادى الأخضر وأخذ ينظم قواته وأعوانه استعداداً للصدام المتوقع فى أى وقت مع حليفه السابق.

وكانت بداية الصراع بينهما حين استولى الأمير حسين على قلعة «قارشى» الحجرية والتى قد بناها تيمورلنك وقد أنفق على بنائها الكثير من أمواله وكان يعتز بها، بالإضافة إلى استيلائه أيضاً على مدينة «قارشى» أيضاً وقد وضع فيها قوات تحميها وجعل عليها موسى أحد قواته حامياً ونائباً له عليها.

وخطط تيمورلنك للاستيلاء على القلعة ثم المدينة وانتزاعها من قوات الأمير حسين.

والعجيب أن تيمورلنك خطط للإستيلاء على القلعة بعد أن أعطى لقواته إجازة للعيش مع أقاربهم وذويهم وأبقى لديه كتيبة من مائتين وأربعين فارساً وأخبرهم برغبته فى الاستيلاء على القلعة، فتعجبوا من ذلك، لأن القلعة والمدينة تحميها قوات الأمير حسين وعلى رأسهم قائده موسى، وهو يعرف أن تيمورلنك قد أعطى قواته إجازة وليس لديه إلا قوات تتجاوز المائتين بقليل.

كان تيمورلنك يعلم أن قائد القوات موسى وجنوده يشربون الخمر حتى الثمالة وأن موسى يقضى أوقاته على ضفاف النهر فى شرب الخمر هو

وأصحابه ويترك ابنه فى المدينة.

فوضع خطته على مباغتة حرس القلعة أولاً ليلاً بمن معه من القوات القليلة وبقيادته وهم نيام وسكارى ثم ينقض على المدينة وينتزعها.

وكانت خطته جريئة تدل على روح المغامرة وتلك طبيعة تيمورلنك.

قام تيمورلنك ومعه اثنان من رجاله بالطواف حول القلعة ليلاً حتى وجد ثغرة فى أحد أسوارها أمكنه توسيعها حتى يكفى لدخول فرسانه منها وبالفعل تم له ذلك واستطاع دخول القلعة والقضاء على من فيها قبيل الفجر ثم أمر جنوده بدق الطبول وعزف الأبواق من أبراج القلعة حتى استيقظ سكان مدينة قراشى من نومهم وخرجوا ينظرون فإذا رجال تيمورلنك على أبراج القلعة فظن الجنود فى المدينة أن تيمورلنك قد استطاع الاستيلاء على القلعة بجيش كبير فجاءوا مسلمين وطلبوا الانضمام إليه.

واضطر ابن قائد الحامية للاستسلام لتيمورلنك فأبقاه تيمورلنك فى مكانه بالمدينة وأرسل عائلة موسى إلى سيدها عند ضفة النهر.

ولكن الأمير حسين سارع بالتحرك إلى المدينة المسلوبة منه بجيش قوامه عشرة آلاف فارس على مقدمتهم قائد الحامية موسى فقابله تيمورلنك ومعه ثلاثمائة من فرسانه فى معركة غير متكافئة انسحب على أثرها تيمورلنك من المعركة والمدينة أيضاً ولحق به أتباعه فيها حين ذهب إلى قرية ماخان وترك فيها ابنه وأهله فيها وكتب إلى الملك حسين آل كرت يخبره بذلك واستقر رأيه إلى الانسحاب إلى مدينة خوجند فى الشمال ومعه نحو ستمائه فارس وهناك انضم إليه اثنان من الأمراء هما كيخسر حاكم ختلان وبهراج جلاء بعد تركهما الأمير حسين فانضما إلى تيمورلنك ومعهما قواتهما البالغ تعدادهم سبعة آلاف فارس وكان هذه القوات وهؤلاء الأعوان القوة الضاربة لتيمورلنك فى صراعه وقتاله ضد الأمير حسين.

أقام الحلفاء الجدد فى طشقند شهراً وجاءتهم الأخبار أن الأمير حسين قد

تقدم إلى ضواحى سمرقند وقد أرسل طلائعه لتعقب أخبار تيمورلنك.

واستطاع تيمورلنك التصدى لطلائع الأمير حسين وهزيمتهم مما دفع الأمير حسين الإسراع بمهاجمة تيمورلنك فى طشقند ولكن اللقاء لم يتم لتحصن تيمور بقواته فى المدينة وسقوط الثلوج لدخول فصل الشتاء مما اضطر الأمير حسين للانسحاب إلى سمرقند.

وأمضى تيمورلنك شتاء عام ١٣٦٨م فى طشقند وأرسل إلى خان المغول الجات فى الماليك يطلب معاونته ضد غريمه.

وخشى الأمير حسين من استجابة مغول الجات لتيمورلنك فأرسل وفداً من علماء الدين لإجراء الصلح بينه وبين تيمورلنك إعمالاً لقوله تعالى ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا فأصلحوا بينهما﴾.

فوافق تيمورلنك على الصلح وتم الاتفاق على المصالحة بين الغريمين أمام قبر أحد الأولياء الصالحين «أتا على» فى قرية تمشى على عادة أهل هذا الزمان بالقرب من مدينة سمرقند ووضع كل منهما يده على المصحف الشريف وحلفا عليه.

وأنتج هذا التحالف بين تيمورلنك والأمير حسين عدم استطاعة مغول الجات من غزو بلادهما مرة أخرى حيث استطاعا صد الهجوم الذى قام به مغول الجات بعد هذا الاتفاق حيث جاءت من الشمال لتصدى المتحالفين بقواتهما على ضفاف نهر سيرداريا وانتصروا عليهم.

ونتج أيضاً عن هذا التصالح والاتفاق أن ساعد تيمورلنك الأمير حسين فى التصدى للتمرد الذى تم ضده فى منطقة بدخشان فى جبال هندوكش حيث استنجد الأمير حسين بحليفه تيمور فلبى الأخير النداء وأنقذه من هذا التمرد.

وكذلك استجاب تيمورلنك لنداء الأمير حسين لصد تمرد بعض أمرائه وهما الشيخ محمد بن بايان سلدوز والأمير كيخسروختلانى وكانت كل هذه الانقلابات على الأمير حسين بسبب سوء تصرفاته وعدم حكمته فى الحكم.

ورغم أن تيمورلنك أوفى بعهده للأمير حسين إلا أن الأخير كما قال المؤرخون أراد الغدر به والاستقلال بالزعامة والسلطة وأرسل قواته إلى كيش لإجبار قبيلة برلاس على الهجرة إلى مدينة بلخ أفاستجار أبناء القبيلة بتيمورلنك وهو من أبناء القبيلة وزعيمها وابن زعيمها السابق وكان الأمير حسين قد أراد الغدر به وقد عاد العداء بينهما مرة أخرى فلبى تيمورلنك استغاثة أبناء قبيلته وتجهز لقتال الأمير حسين.

وكان اللقاء بين تيمورلنك والأمير حسين الذى زال عنه سلطانه وقواده وأمراؤه بسبب سوء حكمته وذلك عام ١٣٧٠م - ٧٧١هـ فى ممر باب الحديد حيث أراد التوجه إلى مدينة ترمز وقد انضم إلى تيمور الكثير من القبائل المغولية الجغطائية المتواجده جنوب النهر.

أضف إلى ذلك أن الأمير موسى قائد قوات الأمير حسين قد تركه وانسحب إلى سمرقند.

وكان اللقاء بين المتحالفين السابقين عند سهل بلخ ولقى الأمير حسين وقواته هزيمة منكرة اضطرته كعادته على الهروب إلا أن عددا من الأمراء وعلى رأسهم كيخسر وقد استطاعوا أن يعتقلوه وقتله هو وأربعة من أبنائه وهرب اثنان من أولاده إلى الهند وكانت تلك نهايته المتوقعة.

لقد استطاع تيمورلنك فى تلك الفترة من جذب الأنصار إليه فى حين كان غريمه التقليدى استطاع بسوء تصرفه أن يطرد أنصاره من حوله ليكونوا من ألد أعدائه فخسر كل شىء وصادر تيمورلنك أمواله وقام بتوزيعها على أتباعه الجدد وأنصاره.

وكانت هزيمة الأمير حسين ومقتله الخطوة الأخيرة لتيمورلنك كى يجلس على كرسى الخان وهذا ما قد تم له بالفعل بعد عقد اجتماع مجلس الكوريتارى كما سيأتى.

اختيار تيمورلنك سلطاناً للمغول

بعد مقتل الأمير حسين أصبح الطريق ممهداً مفروشاً بالورود أمام تيمورلنك كى يعتلى عرش الخان ولم تبق إلا عقبة واحدة هى قانون جنكيز خان الذى يقضى بأن يكون الخان الأعظم للمغول من نسل جنكيز خان من زوجته الأولى كما ذكرنا من قبل.

إلا أن هذا الشرط يمكن حله بوضع أحد أحفاد جنكيز خان كخان صورى ويكون تيمورلنك أميراً وحاكماً فعليا وهذا ما حدث بالفعل.

فقد دعا تيمورلنك المجلس العام لرؤساء وقبائل المغول المسمى «كوريلتاى» فى العاصمة المغولية وأسرع للحضور أعضاء المجلس وفيهم علماء وفقهاء وأمراء من شتى دولة المغول من الهند وإيران وبخارى وغيرها وكان بينهم زين العابدين ابن الشيخ المعمم والمسموع الكلمة فى قومه وكذلك بهاء الدين الناسك من بلاد ما وراء النهر.

وطالب رؤساء أقوى القبائل بإنفاذ شريعة جنكيزخان بأن يكون الخان رئيس البلاد من ذريته ويكون تيمورلنك نائباً له.

لكن الناسك أبا السعادات تكلم باسم رجال الدين فقال: إنه لمخالف للشريعة أن يكون المسلمون خدما للكفرة من بينكم وبما يتعلق بجنكيز خان فقد كان كافراً يسكن الصحراء واحتل بلاد المسلمين بالقوة والآن سيف تيمور لا يقل فعلا عن سيف جنكيز خان.

وأضاف: إننى أعلم أنكم مسلمون وأنا منحدرين من ذرية حفيد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبالتشاور مع منحدرين آخرين من هذه الذرية الطاهرة ومع كبار العلماء والفقهاء فإنى أنظر إلى تيمور كالسيد وحد لبلاد ما وراء النهر ولجميع بلدان طوران.

لقد رأى أن تيمورلنك هو رجل الساعة والقادر على توحيد الصفوف وإعادة الاستقرار للبلاد بعد أن سادها الفوضى والصراعات وبالإضافة إلى أن الفرسان والمقاتلين المغول رأوا أنه لا بديل عن اختيار تيمور سلطاناً عليهم.

وانتهى الأمر إلى موافقة الأمراء وكبار شيوخ القبائل إلى اختيار تيمورلنك سيداً عليهم وسلطاناً وذهبوا إليه وبايعوه وأجلسوه على عرش اللباد الأبيض وكانت تلك الطريقة القديمة لدى قبائل المغول فى اختيار زعيمهم وملكهم وأخذ الملا زين الدين وبيده القرآن الكريم ينتقل من أمير إلى آخر طالباً منهم القسم على السمع والطاعة لتيمورلنك.

وأصبح تيمورلنك أميراً على قبائل المغول أو سلطاناً عليهم واكتفى بلقب الأمير حتى عام ١٣٨٨م حين توفى الخان الصورى سيور غعتميش وانتهت وظيفة الخان الصورى من بعده وقد تم تعيين الأمير سيور غتميش بن دشمان جه خاناً عاما وهو من نسل أوغوداى بن جنكيز خان وقد شغر ذلك المكان بمقتل كابل شاه عام ١٣٦٥ وكان والد سيور غتميش أيضاً خاناً عاما عام ١٣٦٤ فى عهد صانع الملوك قازغان.

وكان اختيار سيور من جانب تيمورلنك لإضفاء الشرعية على حكمه كما ذكرنا وقد جمع بذلك بين الرأى المطالب بالالتزام بشريعة جنكيز خان والرأى المنادى بأن يكون المنصب للحاكم المسلم وليس للكافر.

وقد توفى سيور غتميش عام ١٣٨٨ وخلفه ابنه محمود وكما ذكرنا أن وظيفة الخان كانت فى تلك الفترة صورية ولا يتمتع بأى سلطة.

وبعد اعتلاء تيمورلنك العرش عفا عن كل معارضيه فعفا عن الأمير موسى قائد جيوش غريمه الأمير حسين والذى دبر مؤامرة لاغتياله وعفا أيضاً عن شريكه فى المؤامرة الشيخ أبى المعالى وزنده حشم حاكم شبورغان بعد أن أخذ منهم الطاعة له.

ولكنه لم يتسامح مع الأمير كيخسرو ختلانى والذى كان يطمع فى السلطة

واتصل سراً بحاكم خوارزم حسين صوفى ضد تيمورلنك وبعد اكتشاف المؤامرة تم تقديمهما للمحاكمة بتهمة الخيانة وتهمة قتل الأمير حسين وتم إعدامهما عام ١٣٧٣م ثم تخلص من منافسه الآخر شيخ محمد بن بايان سلدوز عام ١٣٧٦م.

وقام تيمور بإصلاح وإعادة بناء مدينة سمرقند بعد أن حل بها الخراب نتيجة الصراع بين فصائل المغول.

وقد حمل تيمورلنك فى حياته ألقاباً كثيرة منها السلطان العادل والخاقان والباديشاه العظيم والأمير المجيد وصاحب القرآن وكوركان وقطب الحق والدنيا والدين(١).

وكانت بداية اختياره سلطاناً على المغول بداية مشواره العملى نحو تكوين الإمبراطورية المغولية الثانية.

■■■

(١) انظر تيمورلنك ـ محمد أسد صفا ـ بتصرف واختصار.



6

الثائر يُصبح إمبراطوراً

- غـزو بلاد خـوارزم أول حـروب تيـمـورلنـك الإمبراطور.
- غزو بلاد فارس ثم بغداد وبلاد العراق.
- بداية الصراع بين تيمورلنك والمماليك.

بداية عمل الإمبراطور الجديد بغزو إقليم خوارزم

بدأ تيمورلنك عمله كخان للمغول بوضع استراتيجية هدفها إنشاء إمبراطورية مغولية كبرى على غرار إمبراطورية جنكيزخان.

ولهذا امتد نشاطه العسكرى من نهر الفولجا فى روسيا حتى دمشق فى الشام ومن أزمير فى آسيا الصغرى حتى نهر الجانج فى الهند.

والعجيب أنه بالرغم مما حققه من انتصارات واحتلال البلاد الكثيرة إلا أن حكمه لم يستقر فيها أبداً كما كان الحال فى عصر جنكيز خان.

فقد استطاع فى البداية ضم إقليم خوارزم إلى مملكته منذ عام ٧٨٢هـ - ١٣٨١م حين عبر نهر جيحون - أموداريا - واخترق الأراضى فى خراسان وزحف نحو عاصمته الكرات «هراة» فأخضع حاكمها غياث الدين.

أما إقليم خوارزم فكان لابد من ضمه إلى الإمبراطورية الجديدة لاستقرار الحكم فى كل بلاد ما وراء النهر وكانت تحكم من إقليم خوارزم بأسرة آل صوفى وهى تنتمى إلى قبيلة مغولية تركية تدعى «تموتكرات» وقد تحررت من السيطرة مغول الجات أولاد العم الغزاة.

وقامت أسرة آل صوفى بالاستيلاء على مدينة «كات وخيوه» أثناء نشوب الصراع بين تيمورلنك والأمير حسين.

وأما تيمورلنك فقد رغب بشدة من ضم كل بلاد ما وراء النهر وخاصة الإيرانية منها وكانت أول هذه المدن هى خوارزم وعاصمتها أوركنج ذات الحضارة والازدهار والأسوار العالية حيث موقعها على نهر «أموداريا» - جيحون - وكان على كرسى الحكم فى إقليم خوارزم حسين صوفى الذى قام بإرسال

الهدايا الثمينة لتيمورلنك عقب جلوسه على عرش الخانية ورد عليه تيمورلنك بهدايا أكثر قيمة وطلب من حسين صوفى أن يزوج ابنته لابنه «جها نكير» وهذا يعنى أن يكون تابعاً له وتنضم خوارزم إلى إمبراطوريته دون قتال أو مشاكل.

فرد عليه حسين صوفى: لقد افتتحت بالسيف خوارزم وبالسيف يمكن أخذها منى.

قرر تيمورلنك غزو خوارزم لاسيما أن حسين صوفى أودع السجن أحد الوسطاء الذين أرادوا عدم اشتعال الحرب بين تيمورلنك وحسين صوفى وتراق فيها دماء المسلمين وكان مرسلاً من جانب تيمورلنك.

فكانت الحملة الأولى لتيمورلنك على خوارزم عبر صحراء كزيل كوم وقادها تيمورلنك على خوارزم عبر صحراء كيزيل ـ كوم بنفسه وتحصن حسين صوفى بأسوار المدينة المنيعة وأرسل إلى تيمورلنك يطلب مبارزته بمفرده بالسيف والرمح لإنهاء الخلاف فوافق تيمورلنك على طلب المبارزة.

وأظهر تيمورلنك شجاعة نادرة حين رفض أن يقوم أحد قواده بالمبارزة نيابة عنه وخرج فى الميعاد والمكان المحدد لمبارزة حسين صوفى ونادى عليه بأعلى صورته أن ينزل إليه للمبارزة.

لكن حسين صوفى الداعى للمبارزة جبن وخشى أن يخرج لتيمورلنك وانتظر تيمور كثيراً ولم يخرج له حسين صوفى فناداه تيمور من ينكث بوعده يفقد حياته.

ثم عاد إلى خيمته وجنوده وقد استقبل بترحاب وهتاف المنتصر ودق الطبول وعزف الأبواق تعبيراً عن النصر والفرح.

والعجيب أنه فى اليوم التالى مرض حسين صوفى فجأة وتوفى!!

وتولى أخوه السلطان يوسف الحكم بعده وقام بالاتصال بتيمورلنك واسترضاه وعرض عليه أن يزوج ابنة أخيه خان زاده إلى أحد أبناء تيمور وأن يكون تابعاً له فى حكم خوارزم فوافق تيمورلنك على ذلك وقفل راجعاً إلى مقره

وحكمه وذلك عام ١٣٧٠م.

ولم تمض ثلاث سنوات حتى اكتشف تيمورلنك أثناء محاكمة الأمير كيخسرو ختلانى بتهمة التآمر على تيمورلنك أن هناك اتفاقاً بين كيخسرو ويوسف صوفى حاكم خوارزم فسارع تيمور إلى غزو خوارزم فلما علم حسين صوفى سارع إلى طلب الأمان من تيمورلنك وشفعت له ابنة أخيه خان زاده التى تزوجها ابن تيمورلنك فعفا عنه وأبقاه فى الحكم.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فقد عاود يوسف صوفى للتمرد على تيمورلنك حين علم أنه منشغل بقتال القبيلة الذهبية المغولية،

وأغار يوسف على مدينة بخارى فأرسل إليه تيمور موفداً يسأله عن ذلك فقام يوسف صوفى بسجنه، فتحرك إليه تيمورلنك وحاصر عاصمة خوارزم أكثر من ثلاثة عشر شهراً وحين سقطت المدنية فى يديه أباحها للسلب والنهب على عادة المغول القديمة ودمر أسوارها وأسر أشرافها وقتل الكثير من سكانها وأحرقت القصور والمبانى وتركت المدينة خرائب تسكنها الأشباح.

وقد أعاد ذلك الفعل بعاصمة خوارزم من كان يفعله جنكيزخان وهولاكو بالمدن التى يغزونها فى الماضى القريب لذلك الحادثة، وفتحت الشهية لتيمورلنك فى تدمير المدن وإعادة مجد المغول فى تدمير الحضارات وسفك دماء معارضيهم وإن كانوا من المغول والترك وإخوانهم فى الدين أيضاً.

وهكذا خلع تيمورلنك ثوب الثائر وارتدى ثوب الطاغية وتمثل له قدوته جنكيز خان الذى استطاع تكوين إمبراطورية على جثث الشعوب.

ثم لقد تحول تيمورلنك لغزو بلاد إيران بعد أن استولى على إقليم خوارزم وجرى ذلك مع مراحل وفق خطة وضعها تيمورلنك وسار عليها كما فعل جنكيز خان فى الماضى.

■ ■ ■

تيمورلنك يغزو بلاد فارس وجورجيا وأرمنيا

مدن بلاد فارس وإيران متداخلة جنوب بحر قزوين وشرقه وكلها مدن مجاورة لبلاد أفغانستان والدولة الإيلجانية المغولية والقبيلة الذهبية المغولية وكانت الحد الفاصل بين قبائل المغول والعالم الإسلامى العربى حين قام جنكيز خان بغزو العالم ثم تبعه حفيده هولاكو.

وكانت تلك البلاد قد دخلها الإسلام منذ القرن الأول الهجرى حين فتح المسلمون الأوائل فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلاد فارس وإمبراطورية فارس القديمة.

وكانت منطقة خراسان التى يحكمها آل كرات من أكبر المدن الإيرانية القديمة وهى التى بدأ بغزوها تيمورلنك عام ١٣٧٩م فعبر نهر «أموراريا»(١) حيث البلاد الإيرانية فتوجه إلى مدينة «سرخص» فسارع حاكمها الملك محمد الذى لا يستطيع التصدى لجيش تيمورلنك الجرار فقدم له فروض الولاء والطاعة.

ثم عام ١٣٨١م قام باحتلال مدينة «هرات» دون قتال وأبقى على حاكمها غياث الدين فى حكم المدينة تابعاً له ولكنه استولى على أموال وكنوز من تلك المدينة وسلبها لصالحه.

ثم تحرك إلى منطقة خراسان الغربية فدخل مدينة «كيلات»(٢) دون قتال حيث استسلم له حاكمها على بك، ثم انتقل إلى مدينة «طوس» فخضعت له دون قتال ودخل حاكمها على المؤيد السربدارى فى طاعته.

(١) نهر جيحون.

(٢) تسمى الآن «ناديري».

ثم توغل فى خراسان الغربية فاحتل مدينة اسفرائين التابعة لشاه ولى حاكم مقاطعة مازندان جنوب شرق بحر قزوين وعاصمته استراباذ(١).

عاد تيمورلنك إلى سمرقند بعد تلك الحملة العسكرية واستعرض فيها قدرات جيشه.

لكن الأمور لم تستقر فى البلاد التى استسلمت له حين قام حاكم كيلات على بك وحاكم منطقة مازندان شاه ولى بالإغارة على «سيزدار» مما اضطر تيمورلنك للعودة إلى مدينة كيلات وحاصرها حتى استسلم له على بك.

واتجه إلى قلعة ترشيز وفتحها واتجه إلى الشمال فغزا المنطقة التى يحكمها شاه ولى وعاث فيها فساداً كى يظهر قوة بطشه فأسرع حاكمها يقدم له فروض الولاء والطاعة.

ولكنه تحفظ على حاكم هرات غياث الدين وأسرته وعلى بك وأسرته وعشريته فى سمرقند.

ثم أغار على أراضى شاه ولى عام ١٣٨٣ م وفى نفس العام حدث تمرد من السر بداريين فى سيزداد وسيستان، فتوجه إليهم وأخمد هذا التمرد بوحشية.

ثم توجه إلى سيستان وحدثت معركة حول العاصمة «زارنج» بين جيش تيمور وأهلها وجيشها فانهزموا وتحصنوا داخل المدينة، فاقتحم تيمور أسوار المدينة ثم أمر بقتل سكانها جميعاً وأخذ حاكمها قطب الدين أسيراً إلى سمرقند، وبذلك سيطر تيمورلنك على منطقة سستان كلها.

ولكن وبعد ثلاثة أشهر قضاها تيمور فى سمرقند عاد مرة أخرى للتحرك نحو خراسان للقضاء على حاكم مقاطعة مازندان جنوب شرق قزوين حيث إنه لم يأمن جانبه رغم أن الأخير أظهر استسلاماً له، واتجه تيمورلنك وجيشه صوبه باتجاه «مرغب» عن طريق «بلخ» ثم إلى سرخس وباورد ثم شرقاً إلى «نسا» وكان شاه ولى قد حشد قواته واستعد للمواجهة مع جيش تيمور واتخذ

---

(١) انظر تيمورلنك ـ محمد أسد صفا.

مقره فى حصن دورون الواقع بين مدينتى أباد وقزيل شرق خراسان.

ودارت معارك طاحنة بين الطرفين عند الحصن انتصر فيها تيمورلنك وهرب شاه ولى وتعقبه تيمورلنك قريباً من نهر جورجان، ودارت معارك أخرى انتهت لصالح تيمورلنك وهرب شاه ولى نحو الغرب.

واستطاع تيمورلنك فى هذا الاجتياح من السيطرة على لوريستان مما ساعده على اجتياح والقضاء على دولة الجلائيريين حكام الشمال الغربى والإيرانى فيما بعد، وأرسل حكام لوريستان إلى عاصمته سمرقند وهرب السلطان أحمد بن أويس جلائرى من «تبريز» إلى بغداد بعد أن احتل تيمورلنك تبريز وقضى فيها عام ١٣٨٧ م.

ثم قام تيمورلنك بغزو جورجيا بعد أن غادر مدينة تبريز فكانت أول المدن التى دخلها فى تلك المنطقة مدينة نخشفان على ضفاف نهر أرس «أراكس» وهى من بلاد الكرج بلاد جورجيا.

ثم تحرك منها إلى «قرص» ثم «تفليس» ثم غادر بلاد جورجيا إلى أذربيجان وقد أخذ بقراط ملك جورجيا أسيراً وقد خضع له حاكم شروان الشيخ إبراهيم ثم انحدر إلى «قرة باغ» ثم إلى «بردع» فى الشمال وجاءته الأخبار بهجوم ملك القبيلة الذهبية المغولية توقتميش عبر بوابة دربند ردا على احتلال تيمورلنك لأذربيجان التى كانت ضمن أملاك القبيلة الذهبية، فهاجمه تيمورلنك ورده إلى بلاده[1]، وكانت تلك بداية الصراع بين تيمورلنك وإخوانه من القبيلة الذهبية.

اتخذ تيمورلنك حجة أن التركمان سكان أرمينيا الشرقيين أصحاب دولة الغخة السوداء «قرة كيونلو» مهاجمتهم للحجاج الذين يعبرون بلادهم فتوجه إليهم فدخل أراضى أرمينيا الشرقية من نخشفان، فاستولى على قلاعها حتى جاوز مدينة أرضروم.

ثم احتل مدينة خلاط ومدينة «مومش» و«مراغة» شرق بحر أورمية فى

(١) انظر المصدر السابق.

أذربيجان ثم استقر فى مقاطعة «جيلان» على السواحل الجنوبية لبحر قزوين.

وهكذا فرض تيمورلنك سيطرته على تلك المناطق.

ثم قام تيمور لنك بغزو آل مظفر ودولة المظفرين حين رفض حاكمها زين العابدين طلب تيمورلنك بدخول بلاده واعتقل تيمور ذلك الحاكم.

وحدثت مناوشات بين سكان مدينة «أصفهان» وجنود تيمورلنك رغم استسلام أهل المدينة له مما أدى إلى قيام تيمورلنك بقتل سبعين ألفاً من السكان فى مذبحة رهيبة عام ١٣٨٧م(١).

ثم توجه تيمورلنك وبعد مذبحة أصفهان إلى «شيراز» وهرب حاكمها من أمامه إلى ابن عمه حاكم «تستر» خوزستان» وجاء المظفرون إلى تيمورلنك يقدمون له فروض الولاء والطاعة فرضى منهم ذلك وعاد إلى عاصمته سمرقند عام ١٣٨٧ محملاً بالأموال وما حصل عليه من الغنائم يستعد لمعارك أخرى مع أبناء عمومته أبناء القبيلة الذهبية التى امتدت من عام ١٣٨٧م حتى ١٣٩١م - ٧٨٩هـ - ٧٩٣هـ.

وكانت دولة مغول فارس وهم سلالة هولاكو وجنكيزخان قد انقسمت بعد موت أبى سعيد عام ١٣٣٥ - ٧٣٦هـ وأصبحت أربع دول هى الدولة الجائرية والدولة المظفرية وهم من العرب ودولة كرت والدولة السربدارية وكان الجلائريون يحكمون مناطق بغداد وتوريز فى أذربيجان توريز ودولة المظفريين فى فارس وعراق العجم وكرمان وعاصمتهم يزد.

أما الكرت فحكموا المناطق الشمالية الشرقية من فارس والأقاليم المجاورة لها وعاصمتهم «هراة» وحكم السريداريين فى سبزاور فى خراسان.

وقد قام تيمورلنك كما ذكرنا من إخضاع تلك الدولة المغولية له وتمكن من ضم إقليم خوارزم عام ١٣٨٠م ثم فارس ١٣٨١م ثم دولة آل كرات وقضى على أسرة السبروارين وكذلك استولى على مازندران وسستان ولم يبق أمامه إلا

---

(١) أخذ تيمور لنك من تلك المدينة كل الحرفيين إلى سمرقند.

القضاء على الدولة الجلائرية والتى تحصن ملكها أحمد بن أويس ابن شيخ حسن برزك فى بغداد بعد هروبه من أمام تيمورلنك فى «تبريز» وحاول أحمد ابن أويس استرضاء تيمورلنك كى يأمن بطشه حين علم أنه ينوى غزو بغداد ليضم باقى الدولة الجلائرية إلى أملاكه كما فعل مع دول مغول فارس.

ولاسيما أن تيمورلنك قد أخضع الإمارات التركمانية فى أرمينيا التى كانت خاضعة من الناحية الإسمية إلى الدولة الجلائرية التى يحكمها أحمد بن أويس.

■ ■ ■



7

تيمورلنك وغزو العراق

- غزو تيمورلنك الأول لبغداد والعراق وهروب سلطانها إلى مصر.
- عودة السلطان أحمد بن أويس لحكم العراق والغزو الثانى لتيمورلنك لبغداد وتدميرها وقتل أهلها فى أكبر مذبحة شهدتها المدينة تفوق ما حدث أيام هولاكو.

غزو تيمورلنك بغداد والعراق
وهروب حاكمها إلى مصر

قرر تيمورلنك في عام ٧٩٥هـ - ١٣٩٣م الزحف على بغداد فأسرع حاكمها السلطان أحمد بن أويس بإرسال الهدايا الثمينة إليه واعتذر في نفس الوقت عن الحضور بشخصه لمقابلة الفاتح المغولي كما أبدى انزعاجه من القوة العسكرية الهائلة التي تصاحبه.

ولكن تيمورلنك أصر على الدعاء له في خطبة الجمعة في مساجد بغداد وسك العملة باسمه بما يعني خضوع أحمد بن أويس له خضوعاً فعليا.

واستجاب أحمد بن أويس لكل تلك الطلبات فلبس خلعة تيمورلنك وضرب السكة باسمه كما ذكر اسمه في الخطبة إلا أن ذلك لم يؤد إلى حماية مملكته من هجمات تيمورلنك لأن أحمد بن أويس كان حاكماً ظالماً لرعاياه فحث هؤلاء تيمورلنك على الاستيلاء على بغداد فاستغل تيمورلنك هذه الفرصة وهاجم المدينة واستولى عليها سنة ٧٩٥ هـ - ١٣٩٣م فهرب أحمد بن أويس إلى سلطان المماليك بالقاهرة[1].

ويذكرنا ما فعله أحمد بن أويس حاكم بغداد بما فعله صدام حسين حاكم العراق في العصر الحديث حين أراد هولاكو العصر الحديث بوش الابن الأمريكي غزو العراق واتهامه صداماً بامتلاكه أسلحة الدمار الشامل فقدم له الأخير فروض الولاء والطاعة وفتح الأبواب للمفتشين الدوليين للتفتيش إلا أن بوش الغازي استغل وجود معارضين لحكم صدام الباطش بكل معارضيه وشعبه

(١) انظر نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان - الخطيب الجوهري تحقيق د. حسن حبشي جـ١ تاريخ ابن قاضي شهبة: الجزء الثالث تحقيق عدنان درويش ص ٤٧٣ - ٤٧٨ - ٥٠٤ - ٥٠٥، وابن الفرات: تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ٢ تحقيق د. قسطنطين رزق.

فقام بغزو العراق عام ٢٠٠٣م.

وهذا يؤكد أن ما حدث فى الماضى يتكرر لأن الطغاة على شاكلة واحدة وأن وراء كل طاغية أحد الغزاة يستفيد من هذا الحاكم المستبد الطاغى.

فقد حث المعارضون أحمد بن أويس تيمورلنك وشجعوه على غزو بغداد وكذلك فعل المعارضون لصدام حسين من حث بوش الأمريكى على غزو العراق وإن كان كل من بوش وتيمورلنك كانت لديهم النية المسبقة لهذا الغزو ولكن الأسباب كانت مختلفة لدى كل منهما.

فتيمورلنك أراد ضم بغداد والعراق لإمبراطوريته لتحقيق مجد وحلم لديه وأضاف بوش إلى هذا الهدف بعداً آخر دينيا وهو تحقيق نبوءات التوراة والإنجيل حسب زعمه واعتقاده واعتقاد الإنجيليين الجدد والصهاينة الجدد من تكوين إمبراطورية جديدة يحكمها المسيح الدجال باسم الحكم الألفى السعيد(١).

وكذلك فعل بوش الابن بأهل بغداد والعراق كما فعل تيمورلنك بأهل بغداد بعد أن هرب حاكمها أحمد بن أويس إلى مصر وهرب على طريق مشهد الحسين وصل إلى الرحبة ثم تحول إلى حلب ونزل الميدان وأكرمه نائبها وطالع السلطان بخبره فأذن له فى دخول القاهرة فى سنة ٧٩٦ هـ.

ووصل أحمد إلى القاهرة فى شهر ربيع الأول فتلقاه الأمراء وخرج إليه السلطان برقوق فقعد وأمر الأمراء بالترجل له ثم لما قرب منه قام له فنزل إليه فمشى فالتقاه وأراد أحمد أن يقبل يده فامتنع فطيب السلطان خاطره وأجلسه معه على مقعده ثم خلع عليه وأركبه بجواره إلى القلعة فأنزله فى بيت طغا تيمور على بركة الفيل ونزل جميع الأمراء فى خدمته.

ثم أرسل له السلطان مالاً كثيراً وقماشاً ومماليك تخدمه يقال قيمة ذلك عشرة آلاف دينار ذهباً ثم حضر الموكب السلطانى فأذن له فى الجلوس ثم

(١) اقرأ كتابنا حكومة الدجال الماسونية الخفية، الناشر دار الكتاب العربى. ففيه المزيد والمفيد عن هذا الموضوع.

أركبه معه إلى الجيزة للصيد ثم تزوج السلطان برقوق بنت أخيه دوندى سلطان وبنى عليها قريب السفر وبقى السلطان أحمد فى القاهرة حتى حانت له الفرصة بالرجوع إلى ملكه فى بغداد كما سيأتى ذكره.

أما بعد سقوط بغداد فى أيدى تيمورلنك لأول مرة فإنه لم يستقر وجيشه فيها كما هو شأنه وإنما سار عام ١٣٩٣م - ٧٩٦ هـ إلى ديار بكر فاستولى عليها وفى هذه الأثناء وجد أن قلعة تكريت قد عصت عليه وإنها لا تزال لم تذعن له بطاعة فسلط عليها عساكره فحاصروها فلم تسلم له بالأمان وصبر أهلها فأرسل إليها بأمير شاه ملك وأردفه بخوجة مسعود صاحب خراسان وأقام هو ببغداد إلى أن سلمت له بالأمان فى صفر عام ١٣٩٩ وكان متوليها حسن بن بولتمور وكانوا قد عاهدوه أن لا يراق دمه فقتل هو ومن بها من رجال وسبى النساء وأسر الأطفال ودمر تيمور القلعة وتركها كما كان يفعل جنكيز خان وهولاكو.

قال ابن خلدون: «وقد كان بعد ما استولى على بغداد زحف فى عساكره إلى تكريت مأوى المخالفين وعش الحرابة ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم ثم خربها وأقفرها وانتشرت عساكره فى ديار بكر إلى الرها.

وجاء أن تيمورلنك فى أول عام ١٣٩٣م سار بنفسه وعساكره إلى تكريت وحاصرها فى بقية المحرم كله ودخلها عنوة فى آخر الشهر فقتل صاحبها وبنى من رؤوس القتلى مأذنتين وثلاث قباب وخربت البلد حتى صارت نفرة وكان استولى على قلعة تكريت وأميرها حسن بن زليمور فنزل بالأمان فأرسله إلى دار دس عليه من هدمها ومات تحت الردم ثم أثخن فى قتل الرجال وأسر النساء والأطفال.

وبعد وقعة بغداد سار جيش تيمور إلى أربل فحاصرها فأطاعه صاحبها وقدم له الهدايا اللائقة فقبلها وعادت أربل بلدة تابعة له.

ثم إن تيمورلنك جهز ولده بجيش إلى صالح بن صيلان صاحب البصرة

والبحرين فقاتلوه فهزمهم وأسر ولد تيمورلنك وجرح فى إحضاره عز الدين ازدمر وجهز السلطان إليه بثلثمائة ألف درهم فضة برسم النفقة فبعث إليهم جيشاً آخر فظفر بهم وانتصر عليهم.

ثم رحل تيمورلنك عن بغداد عام ٧٩٥ بعد أن دخل وأرمى على أهلها مال الأمان «ضريبة حربية» فطالب أمراؤه الناس على غير طاقتهم وكان المتولى ذلك شرف الدين البليقى ومات فى سبيل ذلك خاق من جراء التعذيب والعقوبة.

وذكروا أن الموكلين أرادوا تعذيب رجل فأراهم موضعاً وقال احفروا هنا وأراد بذلك أن يشغلهم بالحفر عن تعذيبه ولم يكن له شىء فحفروا فلم يجدوا فأرادوا تعذيبه فأقسم لهم أن الذى يعرفه هنا فحفروا ثانى مرة وعمقوا فوجدوا مالاً عظيماً وذهباً كثيراً فمن كثرته شرحوا حاله عند تيمور فأحضر ذلك الشخص وسأله عن أصل هذا المال فقال لا أعلم له أصلاً وإنما أردت أن يشتغلوا بالحفر عن تعذيبى فعند ذلك كف تيمور عن تعذيب الناس.

ولما خرج تيمور من بغداد ولى بها الخواجة مسعود الخرسانى.

ثم إن تيمورلنك نزل رأس العين فملكها ونازل الرها فأخذها بغير قتال ووقع النهب والأسر وانتهى ذلك فى أواخر صفر ولما بلغ ذلك صاحب الحصن جمع خواصه وما عنده من التحف والذخائر وقصد تيمورلنك ليدخل فى طاعته فقرر ولده شرف الدين أحمد نائباً عنه وسار إلى أن اجتمع به بالرها فقبل هديته وأكرم ملتقاه ورعى له كونه راسله قبل جميع تلك البلاد.

ثم خلع عليه وأذن له بالرجوع إلى بلاده وأصحبه بشحنة من عنده ثم قصده صاحب ماردين فتنكر له كونه تأخرت عنه رسله وتربص به حتى قرب منه فوكل به فصالحه على مال فوعده بإرساله إذا حضر المال فلما حضر زاد عليه فى التوكيل والترسيل ثم أخذ فى نهب تلك البلاد بأسرها.

واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وسار فيهم سيرة واحدة من القتل والأسر والسبى والنهب والتعذيب.

ثم أقام فى نصيبين فى الشتاء فلما أتي الربيع نزل ماردين فى جمادى الآخرة فحاصرها وبنى قدامها جوسق يحاصرها منها ففتحوها عن قرب وقتل من الناس من لا يحصى عددهم وعصت عليه القلعة فرحل عنها ثم رحل إلى آمد فحاصرها إلى أن ملكها وفعل بها نحو ذلك ثم توجه إلى خلاط ففعل بها نحو ذلك.

ووصلت رسل تيمورلنك إلى الظاهر «برقوق» يتضمن الإنكار على إيواء أحمد بن أويس والتهديد إن لم يرسل إليه فجهز السلطان إليهم من أهلكهم قبل أن يصلوا إليه وأحضروا إليه ما معهم من الهدايا فكان فيها ناس بزى المماليك فسألهم عن أحوالهم فقالوا إنهم من أهل بغداد ومن جماتهم ابن قاضى بغداد وأن تيمورلنك أسرهم واسترقهم فسلمهم السلطان لجمال الدين ناظر الجيش فألبس ابن قاضى بغداد زى الفقهاء.

وكان فى كتاب تيمورلنك الوعد والوعيد وفى أوله: «قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اعلموا إنا جند الله خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل عليه غضبه لا نرق لشاكى ولا نرحم عبرة باكى».

وهو كتاب طويل وفيه: ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع فكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وأكلتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام.

وأكثر هذا الكتاب متنزع من كتاب هولاكو إلى الخليفة ببغداد وإلى الناصر ابن العزيز بدمشق وهو من إنشاء النصير الطوسى[(١)].

أما كاتب خطاب تيمور لنك فهو ابن فضل الله العمرى.

ونص كتاب تيمور لنك يتضمن الإرعاد والإبراق وينكر قتل رسله وجاء فيه:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ

---

(١) انظر كتابنا هولاكو مارد من الشرق ـ الناشر دار الكتاب العربى.

فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: ٤٦).

اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه مسلطون على من حل عليه غضبه لا نرق لشاكى ولا نرحم باكى قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا.

فقد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأظهرنا فى الأرض الفساد وذلت لنا أعزتها وملكنا بالشوكة أمتها فإن خيل ذلك على وذلك أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

وقال: لكثرة عددنا وشدة بأسنا فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وجيوشنا كعدد الرمال ونحن أبطال وأقيال وملكنا لا يرام وجارنا لا يضام وعزنا أبداً بالسؤدد مقام فمن سالمنا سلم ومن رام حربنا ندم ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا.

وإن أنتم خالقتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم فالحصون منا مع تشييدها لا تمنع والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولا يسمع وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وضعيتم جميع الأنام وأخذتهم أموال الأيتام ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠) وقبلتم الرشوة من الحكام وأعددتم لكم النار وبئس المصير.

فلما فعلتم ذلك وأوردتم أنفسكم موارد المهالك وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء وأرقتم دم الأشراف وهذا والله هو البغى والإسراف فأنتم بذلك فى النار وبما كنتم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣) وفى غد ينادى عليكم

فأبشروا بالمذلة والهوان يا أهل البغى والعدوان وقد غلب عندكم إننا كفرة وثبت عندنا أنكم والله الكفرة تفسقون كفسق الفجرة.

وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدرة وأحكام مدبرة فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً وأخذنا منها كل سفينة غصباً.

وقد أوضحنا لكم الخطاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء وتضرم الحرب نارها وتضع أوزارها وتصير كل عين عليكم باكية وينادى منادى الفراق: هل ترى لهم من باقية ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً وقد أنصفناكم إذا راسلناكم لا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين فما على الرسول إلا البلاغ المبين.

وقد أوضحنا لكم الكلام فأسرعوا برد جوابنا والسلام.

فكتب السلطان برقوق رده عليه فقال بعد البسملة:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦) حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية فكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجانبية وسيرة الكفرة الملاكية وإنكم مخلوقون من سخط الله ومسلطون على من حل عليه غضب الله وأنكم لا ترقون لشاك ولا تحمون عسيرة باك وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم فذاك أكبر عيوبكم وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين ويكفيكم هذه الشهادة الكافية وبما وصفتم به أنفسكم.

فى كل كتاب لُعنتم وعلى كل لسان كل مرسل نعيتم وبكل قبيح وصفتم وعندنا خبركم من حين خرجتم أنكم كفرة ألا لعنة الله على الكافرين من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع نحن المؤمنون حقا لا يدخل علينا عيب ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل فتحققنا نزلوه وعلمنا ببركته تأويله.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

(سورة الكافرون).

فالنار لكم خلقت ولجلودكم أضرمت إذا السماء انفطرت.

ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت والسباع بالضباع والكماة بالكراع.

نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية وسيوفنا يمانية وليوثنا مضرية وأكفنا شديدة المضارب وصفتنا مذكورة فى المشارق والمغارب إن قتلناكم فنعم البضاعة وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **(آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١).**

وأما قولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم كما من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

الفرار الفرار من الرزايا وحلول البلايا.

واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية وإن عشنا عشنا سعداء وإن قتلنا قتلنا شهداء ألا إن حزب الله هم الغالبون أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة.

لا سمع لكم ولا طاعة وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء ففى نظمه تركيك وفى سلكة تلبيك لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان.

أم اتخذتم إلها ثانيا.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (مريم: ٩٠).

وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته: وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب.

كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول إن شاء الله تعالى.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

لقد لبكتم فى الذى أرسلتم. والسلام.

هذا نص كتاب السلطان برقوق على تيمورلنك ولم تقم الحرب بينهما حيث انشغل تيمور بحرب أبناء عمومته من القبيلة الذهبية ولكن الحرب دارت فيما بعد موت السلطان برقوق بين ابنه الناصر فرج وتيمورلنك كما سيأتى ذكره.

ونعود إلى ما دار بين برقوق وتيمور الذى قبض السلطان برقوق على جواسيس لتيمورلنك فى القاهرة جاءوا على هيئة تجار وكانوا سبعة، واستشاط تيمورلنك غضباً لقتل سفرائه فأرسل إلى برقوق رسالة شديدة اللهجة تفيض بالتهديد والانتقام وتتكر عليه قتل السفراء غير أن برقوق لم يهتز لتلك الرسالة بل رد عليها برسالة أخرى أقوى تعبيراً وأشد تهديداً كما ذكرنا.

وبرغم الأزمة المالية الشديدة التى كانت تعانى منها مصر آنذاك[١] فقد خرج السلطان برقوق على رأس جيشه متجهاً إلى دمشق مصطحباً معه أحمد ابن أويس، ووصل برقوق وجيشه إلى دمشق فى جمادى الأول سنة ٧٩٦ هـ - فبراير ١٣٩٤م ومنها إلى حلب.

وفى تلك الأثناء عرض السلطان بايزيد العثمانى وطقتمش خان القفجاق التحالف مع برقوق لأن الجميع كانوا يشعرون بخطر توسع تيمورلنك وأعماله البربرية[٢].

(١) انظر نزهة لتفوس. (٢) انظر السلوك فى معرفة أحوال الملوك.

ثم تقدمت قوات السلطان برقوق حتى قرب نهر الفرات الذى فصل بين قوات الجانبين ونجحت فرقة من المماليك فى عبور الفرات ليلاً بعد أن نفخت القرب وجعلتها تحت بطون الخيل.

ثم هاجمت مقدمة جيش تيمورلنك وألحقت بها الهزيمة.

وجاءت الأخبار إلى تيمورلنك بهجوم طقتمش خان القفجان - القبيلة الذهبية - على منطقة الأبواب عند الحدود بين الدولتين فآثر تيمورلنك الانسحاب من على الفرات لمواجهة الخطر العاجل على حدود دولته وأجل الانتقام من المماليك إلى فترة تالية.

أما أحمد بن أويس فقد جهزه السلطان برقوق وأرسله إلى بغداد حيث نجح فى استعادة ملكه وهزيمة الحامية التى تركها تيمورلنك فى المدينة ثم أصبح أحمد بن أويس نائباً فى بغداد عن سلطان مصر وبذلك امتد نفوذ السلطان برقوق إلى العراق.

ورحل تيمورلنك عن العراق إلى أرمينيا وهو عاقد العزم على العودة إلى مهاجمة بلاد الشام متى سنحت له الفرصة بذلك غير أن ظروفه الداخلية فى ذلك الوقت لم تتح له تحقيق رغبته فقد دخل فى حرب ضد خصمه طقتمش خان الذى عبر الدربند وهاجم الأراضى الخاضعة لتيمورلنك كما اضطر تيمورلنك أيضاً إلى الزحف شمالاً للقيام بحملة فى جنوب روسيا وصل فيها إلى قرب موسكو مما شغله لمدة عام تقريباً.

ومن جهة أخرى نشبت الفتن فى فارس فى أثناء غيبة تيمورلنك فى سوريا كما ألحق الجورجيون الهزيمة بابنه ميران شاه فعاد تيمورلنك إلى فارس لإخماد الفتن فيها ثم شعر بأنه فى حاجة إلى إعادة تنظيم دولته والبقاء فى عاصمته فترة من الوقت للراحة والاستعداد لحملة جديدة فعاد إلى سمرقند فى عام ٧٩٩ هـ - ١٣٩٦م.

ورغم عودة السلطان أحمد بن أويس إلى بغداد فإنه لم يأمن من عودة

تيمورلنك إليه مرة أخرى ولم يستطع أن يشعر بالراحة رغم أن تيمورلنك انشغل عنه بغزوات أبناء عمومته من القبيلة الذهبية كما سيأتى ذكر تلك الحروب التى شاهدت الكر والفر والهروب والهزيمة والانتصار.

وظل يتذكر هروبه خائفاً من أمام بطش تيمور وجيشه أنه لما عاد إلى قصره فى بغداد عمد إلى قتل بعض رجاله بيده ونقل مقره إلى مقر النساء المهجور وأحاط نفسه بمماليك قوقازيين وسياف وأعد ثمانية خيول قوية أصيلة استعداداً للهرب فى أية لحظة وكان يطلق الجواسيس إلى سمرقند لتتبع أخبار تيمورلنك الذى كان منشغلاً بغيره إلا أنه لم ينسه وقد حدث ما كان يخشاه حين عاد بالفعل للتفكير فى غزو بغداد مرة أخرى عام ١٤٠١م ـ ٨٠٣ هـ بعد أن فرغ من معاركه مع خصومه واستقر الأمر بعد تحقيقه انتصارات كبرى وتحقيق الكثير من أحلامه فى توسيع رقعة الإمبراطورية التى حلم بها.

■ ■ ■

غزو العراق للمرة الثانية
وتدميرها بواسطة تيمورلنك وجيشه
عام ١٤٠١م - ٨٠٣ هـ

كما ذكرنا ظل السلطان أحمد بن أويس بعد عودته لبغداد عقب هزيمته من تيمورلنك وفراره إلى مصر حيث أعاده السلطان المملوكى برقوق إلى مملكته بعد أن انسحب منها تيمورلنك لانشغاله بحروب فى مناطق أخرى مع القبيلة الذهبية فكان الغزو الأول ١٣٩٣م فقام السلطان الدائم الهرب أحمد بالتحالف مع زعيم دولة الغمة السوداء التركمانى الأمير قرا يوسف ومع السلطان العثمانى بايزيد.

ولكن تيمورلنك رأى أن خروج بغداد من تحت سلطته وهو فى حروبه مع دولة القبيلة الذهبية والسلطان العثمانى يعد عائقاً وخنجراً فى ظهر جيشه فوجه تيمور من آسيا الصغرى عام ١٤٠٠ جيشا صغيرا بقيادة حفيده رستم من شيراز إلى بغداد.

فأرسل السلطان أحمد قوة للتصدى لهذا الجيش عند «مندلى» وانهزمت القوى البغدادية.

وطلب السلطان أحمد من حليفه الأمير قرا يوسف المساعدة لقاء أموال تعهد بدفعها له فأجابه وأرسل له قوات للدفاع عن بغداد.

وجاءت الأخبار بقرب قدوم تيمورلنك إلى بلاد الشام وبالتالى يكون على مقربة من بغداد فأسرع السلطان أحمد والأمير قرا يوسف بالهرب إلى حلب وترك أمر بغداد لأحد معاونى السلطان واستطاع السلطان أحمد وحليفه الهروب إلى الأناضول والدخول فى حماية السلطان العثمانى بايزيد الأول.

أما بخصوص حصار رستم لبغداد فقد استمر نحو شهرين اضطر رستم وجيشه بالانسحاب حين جاءت الأخبار إليه بوقوع أحداث تمرد ضد شقيقه سلطان محمد بن عمر شيخ فى شيراز وهكذا نجت بغداد من الغزو التيمور إلى حين لم يطل كثيرا حيث عاود تيمور لنك غزوه لبغداد عام ١٤٠١م.

ففى عام ١٤٠١م ـ ٨٠٤ هـ كان تيمورلنك قد توجه لقتال السلطان العثمانى بايزيد الأول فتوجه السلطان أحمد وحليفه قرا يوسف بالعودة إلى بغداد من قلعة الروم على شاطئ الفرات إلى «هيت» ثم عبر إلى بغداد واستعاد سيطرته على بغداد بعد أن جمع أمراءه المشتتين من الأطراف واشتغل بعمارة المدينة.

ولما علم تيمورلنك بعودة السلطان أحمد وهو فى تبريز أمر فرقة من جيشه بالتوجه نحو بغداد لاستعادتها من السلطان أحمد وسير على رأسها أمير زاده أبا بكر وأمير جهانشاه اللذين وصلا إلى بغداد على غفلة من السلطان أحمد الذى أصابه الارتباك كالعادة فهرب وعبر النهر فاراً من أمام هذا الغزو الجديد.

وقام جيش تيمور بسلب ونهب بغداد وكان السلطان أحمد قد جعل ابنه طاهر فى مدينة الحلة والبقاع المجاورة له حاكماً عليها، وحين هرب هذه المرة ظل متواجدا فى أرض العراق مختفياً لم يغادرها يتربص العودة وأما الأمير قرا يوسف فتربص فى الجهات الشمالية من العراق.

ثم إن السلطان أحمد أراد السفر إلى الحلة وكان فيها ابنه السلطان طاهر وفى الأثناء ألقى القبض على وزيره آغا فيروز فارتاب السلطان طاهر من ذلك وتوهم أنه المقصود وتذاكر مع أمراء والده مثل محمد بك وأمير على قلندر وميكائيل وفرخ شاه.

وهؤلاء لم يأمنوا غائلة السلطان أحمد فاتفق الكل على لزوم القيام عليه والخروج من طاعته فرفعوا الجسر وكسروا المياه فى منتصف الليل واتخذوا الأهبة.

فعلم السلطان أحمد بما وقع وشاهد التدابير المتخذة فوقف مكانه ونصب خيامه تجاه جيش ابنه ولما خشى أن يقع خلاف مأموله أرسل قاصداً إلى الأمير قرايوسف والتمس منه أن يوافيه ووعده بمواعيد.

وسار قرايوسف بجيش مؤلف من تركمان وعرب ووافى السلطان أحمد فعبر هؤلاء جميعاً النهر ومضوا إلى ناحية السلطان طاهر فتقابل الجيشان وشرعا فى المعركة فكانت بينهما طاحنة جداً فظهر فيها الانكسار بجانب السلطان طاهر وأثناء هزيمته عثرت فرسه فى نهر فوقع ومات، ونال الجيش غنائم وافرة وربح قوم الأمير قرايوسف الكثير من الغنائم فى تلك المعركة.

انتهت هذه السنة ودخلت السنة الجديدة.

شعر السلطان أحمد بالخطر من هذه المساعدة التى قدمها الأمير قرا يوسف وعلم أنه المقصود بالذات وأن الآمال موجهة عليه فأراد العودة إلى بغداد ليرى تدبيراً ويفكر فى الخلاص من هذا المأزق إلا أن الأمير قرا يوسف لم يمهله وسار وراءه بسرعة فلم يتمكن من النجاة بحياته إلا بشق الأنفس وهرب كعادته أطلق عليه السلطان الهارب!!.

فدخل قرا يوسف بغداد وهرب هوليلا أخرجه منها أمرؤ يقال له «قرا حسن» حمله على كتفه وقطع به نحو خمسة فراسخ وفى طريقه وجد بقرة ركبها السلطان أحمد وجاء بأسوأ حالة إلى تكريت.

وكان هناك عمر الأويرات وهو أمير من جانب السلطان أحمد فأعد له ما استطاع من خيول.

ووصل إلى تكريت جماعة من الأمراء الذين تشتتوا مثل الشيخ مقصود ودولت يار وعادل وغيرهم فاجتمعوا هناك وساروا والسلطان إلى أنحاء الشام.

ودخل السلطان أحمد بن أويس إلى حلب فى صورة فقير هارباً إلى الشام فقام باعتقاله أمير حلب(١). ثم أفرج عنه بعد ذلك ولم يعد إلى بغداد.

---

(١) انظر تاريخ ابن أبى عذيبة ج ٥.

واستولى الأمير قرا يوسف على بغداد وبقيت بيده حتى استعادها تيمورلنك.

لقد تحول تيمورلنك من الذهاب لقتال السلطان العثمانى وتحول من سوريا إلى العراق وخط سيره فى الرها ثم ماردين ونصيبين وعبر نهر دجلة بالقرب من الموصل على جسور من القوارب والعبارات حتى أن هذا العبور بالجيش استمر لمدة سبعة أيام وكانت بغداد قد هرب منها السلطان أحمد وترك فيها من ينوب عنه من قواده ويدعى فرج وأمره بالاستسلام لتيمورلنك.

إلا أن نائب السلطان أحمد فى بغداد حين علم بقدوم تيمورلنك وجيشه الجرار لم يستسلم له وطلب المدد من المدن العراقية المجاورة لبغداد فجاءه المدد القليل من مدن مندلى وبعقوبة والحلة وحدث القتال بين جيش رستم الذى كان مرابطاً فى جنوب بغداد وكانت طليعة لجيش جده تيمورلنك وقد انهزم المدافعون عن بغداد أمام جيش رستم وتحصنوا بأسوار المدينة فى حين أرسل رستم إلى جده تيمورلنك يخبره عن مقاومة أهل بغداد له.

وسارع تيمورلنك بالتوجه بجيشه إلى بغداد لإنهاء حصارها وفتحها ودخولها فقام حين وصل إلى أسواق المدينة المحاصرة باستعراض جيشه وعزف الموسيقى ودق الطبول لإرهاب المحاصرين.

وتم نصب المنجانيق والأبراج حول الأسوار وتم نقب تلك الأسوار وتدميرها فى غضون أيام قليلة وكان أهل بغداد قد أقاموا خلف الأسوار جدراناً داخلية جديدة من الحجر والملاط محمية بالمقذوفات النارية واستمرت المنجانيق بقذف المدينة لمدة أسبوع حتى تم اقتحام المدينة واندفاع جنود تيمورلنك بدخول بغداد مسعورين يقتلون ويذبحون السكان ويدمرون كل شىء.

وقد ساعد الجنود المغول أن يكونوا كالوحوش المفترسة حين اقتحموا المدينة أن هذا الاقتحام كان فى الصيف وحرارة الصيف فى بغداد تفوق الوصف حيث شهر أيار ١٤٠١م.

وكان الحر أيضاً السبب فى انهزام القوة المدافعة عن العراق حين ترك بعض

المدافعين أحد الأبراج وهو برج العجمى وذهبوا إلى منازلهم وقت الظهيرة لتناول قسط من الراحة من شدة الحر وتناول الطعام وكان الغزاة المغول ينتظرون تلك الفرصة فقاموا باقتحام البرج وتسلقوا الأسوار وفتحوا الأبواب للجيش التيمورى البربرى.

وصارت بغداد مستباحة لجنود تيمورلنك فأعملوا الذبح بالأهالى وقتل قائد المدافعين عن بغداد وأصبحت المدينة خاوية على عروشها ومن كثرة القتلى صنع الجنود حوالى ١٢٠ برجاً من الرؤوس البشرية من أهل بغداد.

وأعاد تيمورلنك إلى الذاكرة العربية والإسلامية ذكرى هولاكو وما فعله فى بغداد حين اقتحمها وسقطت فى يديه لكن هذه المرة كان عدد القتلى أكثر حتى إن دماء القتلى انسابت جريان إلى نهر دجلة وأدى ظهور عفونة فى الهواء مما أدى إلى انسحاب تيمورلنك وجنوده نحو ست كيلو مترات عن المدينة.

وقد تم تدمير المدينة بالكامل باستثناء المساجد وأوقافها.

وأصبحت بغداد مدينة الأشباح.

ودوى سقوط بغداد دويا مفزعاً فى أنحاء العالم الإسلامى.

وبعد ذلك انسحب تيمورلنك تاركاً جيشاً فى بغداد وحمل ما حصل عليه من بغداد من غنائم وأسرع نحو الشمال الشرقى حيث منتجع جغاتو جنوب بحيرة أورمية وقضى فيها عشرين يوما.

ثم تحرك إلى تبريز واستجم فى ربوع جورجيا والتى كانت تسمى بلاد الكرخ واستقر بالمقام فى «قراباغ» فى شهر تشرين الثانى ١٤٠١م تمهيداً لحملته ضد بلاد الأتراك العثمانيين حيث السلطان بايزيد الأولى فى جولة أخرى معهم فى معركة أنقرة وهى آخر فتوحات تيمورلنك من الناحية الزمنية.

ولكن هناك معارك أخرى سبقت غزو بغداد سوف نستعرضها قبل الحديث عن آخر معاركه فى أنقرة.

■ ■ ■



8

الصراع مع أبناء العم

- بداية صراع تيمورلنك مع القبيلة الذهبية.
- معارك تيمورلنك مع توقتميش زعيم القبيلة الذهبية وكيف استطاع الاستيلاء علي أراضى وأملاك تلك القبيلة أو الإمبراطورية وإخضاعها لسلطانه.
- استيلاء تيمورلنك على بلاد الروس وأجزاء من القارة الأوروبية.

بداية صراع تيمورلنك مع القبيلة الذهبية

من المعلوم أن جنكيز خان حين كون إمبراطورية على مساحة واسعة من أرض القارة الآسيوية شملت بلاد الصين وبلاد ما وراء النهر فقام بتقسيم تلك الأراضى على أولاده من زوجته الأولى تحت سيادة خان أكبر يتم تعيينه واختيار من مجلس القبائل المغولية الكولتارى لكن تلك الزعامة إسمية وقد استأثر كل زعيم من أبنائه بالسيطرة على الأراضى التى يحكمها ومن بعده أولاده وأحفاده بل وزاد كل منهم فى مساحة تلك الأراضى وبسط نفوذه عليها.

ولكن السيطرة المغولية بدأت تتناقص وتتقلص عن مناطق بلاد الصين بعد استرداد الأسر الإمبراطورية للصين من العودة للحكم وراء المغول.

وانقسمت إمبراطورية المغول إلى قسمين رئيسيين أحدهما إمبراطورية أو دولة الجغطائيون والإيلخانيون وهم نسل جغطاى بن جنكيز خان ويقال لها الإمبراطورية الجغطانية وهى أصغر مساحة من الإمبراطورية الأخرى المسماة بالقبيلة الذهبية وهى لأحفاد «جوجى» أو «جوشى» ابن جنكيز خان الأكبر الذى مات فى أواخر حياة أبيه وقد لقبت بالقبيلة الذهبية لأن باتوا بن جوجى الملقب بالبديع كان يغطى خيمته الكبيرة المقببة بنسيج من الذهب وكانت تشمل بلاد القوقاز وشمال بحر قزوين وجنوب روسيا.

وكانت القبيلة الذهبية من أوائل قبائل المغول دخولاً فى الإسلام منذ عهد زعيمها بركة خان بن جوجى بن جنكيز خان وكان على صلة قوية بالمسلمين من المماليك وحارب ابن عمه هولاكو.

وكانت إمبراطوريتهم ودولتهم أكبر مساحة من أبناء عمومتهم من نسل «جغطاى».

وتولى أفراد هذه القبيلة منذ تولى باتوخان «باطوخان» بن جوجى «١٢٢٤ ـ ١٢٥٦ م» الحكم بفتح مناطق كبيرة فى شمال آسيا وهى مساحة روسيا تقريباً عن مناطق شمال غرب البلاد وامتدت مملكته من بحيرة الآرال حتى البحر الأسود.

وقام المغول بإنزال الكثير من القبائل التركمانية من منغوليا فى المناطق التى احتلوها وكانوا أساساً للجيش المغولى لتلك القبيلة الذهبية.

وانقسمت هذه فى بدايتها إلى قسمين بين أولاد جوجى الأربعة عشر الذين كانوا بزعامة أوردا وسيطر أخوه باتوا على القسم الغربى من المملكة وأطلق عليها القبيلة الزرقاء أو القبشاق الغربى واقتصر حكم أوردا على القسم الغربى الذى أطلق عليه اسم القبيلة البيضاء أو الفضية واستطاع باتو أن يغزو أوروبا والتوغل فى آسيا وبولندا والمجر «١٢٢٧ ـ سنة ١٢٤٢ م» وأصبح يلقب باسم خان القبيلة الذهبية وطغى اسمه على اسم أخيه أورد.

وقد خلف باتوخان فى الحكم ابنه طرطق خان الذى توفى فى نفس السنة التى تولى فيها الحكم فخلفه بركه خان ابن باتو «١٢٥٦ ـ سنة ١٢٦٦ م» والذى اعتنق الإسلام وتحالف مع المماليك فى حروبهم ضد هولاكو والتتار المغول أبناء عمومته وعرفت القبيلة الزرقاء باسم القبيلة الذهبية حيث إن خيمة «باتوخان» كانت ذهبية اللون.

وقد قام طُقطيمش بمساعدة تيمورلنك بتوحيد القبيلة البيضاء مع القبيلة الذهبية ودخل فى حروب مع تيمورلنك كما سيأتى ذكر ذلك.

بعد أن استطاع تيمورلنك القضاء على الانقسام فى دولة جغطاى التى انقسمت إلى عدة دول وذلك بعد صراع مرير وقتال متكرر لإخضاعهم لفت نظره الصراع على السلطة فى دولة أبناء العم من القبيلة الذهبية ولجوء أحد أمراء الأسرة الحاكمة «توقتميش» إليه هارباً من قومه فساعده تيمور على اعتلاء الحكم فى القبيلة الذهبية على أمل أن يكون تابعاً له.

وقد حدث الصراع والقتال بين تيمورلنك وخان القبيلة الذهبية أوروس حين رفض تسليم توقتميش «طقطيمش» وأثر تيمورلنك على رعاية توقتميش الهارب من عشيرته وولاه على قلعتين على الحدود الشمالية لمملكته وكانت القلعتان من أملاك القبيلة الذهبية وقام تيمورلنك بتجهيز توقتيمش بالمال والسلاح والخيول والرجال لغزو القبيلة الذهبية والاستيلاء على الحكم فيها لصالحه.

إلا أن توقيميش هزم فى أول معاركه نحو الاستيلاء على الحكم فى دولة القبيلة الذهبية وفر هارباً.

فقام تيمورلنك بتجهيزه مرة أخرى ولكنه هزم للمرة الثانية ونجا بنفسه بإعجوبة وأنقذه جنود تيمورلنك.

ولم يستطع توقيميش اعتلاء عرش القبيلة الذهبية إلا بعد موت حاكمها وملكها «أورس خان» فعاد إليها حاكماً مدعماً بتحريك قواته ونصف القبائل الشمالية واستطاع القضاء على أعوان أوروس خان وقام بفرض الإتاوات على الأمراء الروس واستطاع أيضاً إخضاع الروس لحكمه وأصبح السيد الأكبر المطاع فى القبيلة الذهبية واستطاع توحيد صفوفها.

أما العجيب فى هذا الأمر أن توقتميش انقلب دون سابق إنذار على تيمورلنك ونسى ما قدمه له من معونة ومساعدة فى اعتلاء عرش الحكم.

فأعد العدة لمنازعة تيمورلنك وحربه لاسترداد مدينة أوكانج التى وضع تيمورلنك يده عليها وهى من أملاك القبيلة الذهبية.

قاد توقيميش وجيشه الذى أعده من قبيلته وعبر سيرداريا إلى مملكة تيمورلنك للهجوم على سمرقند العاصمة وكان تيمورلنك فى إحدى غزواته على مقربة من بحر قزوين.

واستطاع هزيمة ابن تيمورلنك عمر شيخ ومن معه من الجنود وأحرق قصر تيمور فى بخارى ثم انسحب إلى ما وراء نهر سيرداريا.

لكن تيمورلنك استطاع الإسراع بالعودة لمواجهة توقتميش وقد أصبحت

بلاده دماراً وخراباً بفعل ما قام به الغزاة الجدد أبناء العم.

ثم عاد توقتميش مرة أخرى مع جيشه باتجاه سيرداريا لمهاجمة تيمورلنك ولكنه فشل فى إحراز نصر على تيمورلنك وانسحب من أرض المعركة وقام تيمورلنك بمهاجمة بلاد آى صوفى وعاصمتهم أوكانج ثم قام بمطاردة قبائل الجات وطاردهم إلى جهة الشرق كى لا يقوموا بمساعدة عدوه وذلك عام ١٣٨٩م.

وقام بعد ذلك بالهجوم على أراضى القبيلة الذهبية فانطلق شمالاً ليقود حملة عسكرية ضد توقتميش رافعاً شعار الهجوم خير وسيلة للدفاع.

وبالفعل تحرك أواخر عام ١٣٩٠ م على رأس جيش قوامه مائة ألف ولكن مرضه حال دون الاستمرار فى تلك الحملة إلا أنه قام للتحرك فى عام ١٣٩١م فيما أرسل توقتيمش إلى تيمورلنك سفراء يخبره بخطئه فيما فعله ورغبته فى التحالف والمسالمة معه.

ولكن هذه المحاولة من توقتميش لم تلق استجابة من تيمورلنك واستمر فى حملته العسكرية التى سارت أكثر من أربعة أشهر فى رحلة مضنية للوصول إلى القبيلة الذهبية وحاكمها المتمرد.

ودارت رحى الحرب بين الطرفين فى معركة كوندورتشا استطاع تيمورلنك أن يظهر براعته العسكرية وانتصر على جيش القبيلة الذهبية وانهزم توقتيمش وهرب مع بعض أنصاره كعادته.

واستولى تيمورلنك على أملاك وأراضى القبيلة الذهبية وحمل جنوده الكثير من الغنائم وأصدر تيمورلنك تعليماته الإدارية لتنظيم شئون بلاد القبيلة الذهبية بعد أن صارت من أملاك إمبراطوريته الجديدة وعاد إلى سمرقند محملاً بالغنائم والأموال الوفيرة.

واستطاع توقتميش أن يظهر من جديد ويستجمع قواه وأجبر الأمراء الروس بعد سلسلة من الحروب على إخضاعهم وتجديد ولائهم له وبعد ثلاث سنوات من هزيمته أمام تيمورلنك استطاع استرداد الأراضى الواقعة شمال بحر

قزوين وتهديد إمبراطورية تيمور مرة أخرى.

استطاع توقتميش استعادة سيطرته على جميع أراضيه مما جعله يستعد لمواصلة قتاله وحربه لتيمورلنك وقد قام بالتحالف مع المماليك فى مصر أيام السلطان برقوق طمعاً فى مساعدتهم كما ساعدوا السلطان أحمد بن أويس.

أصر توقتميش على استرجاع منطقة أذربيجان التى أخذها تيمورلنك من القبيلة الذهبية فحاول استعادتها عام ١٣٩٤م ولكنه لم ينجح حيث تصدت قوات تيمورلنك له ووصل تيمورلنك لأرض المعركة على ضفات نهر «كر» فى شروان حيث هرب توقتميش عبر بوابة «دربند».

واستقر تيمور فى شمال أذربيجان فى منطقة شروان واستعد للهجوم على توقتميش وقواته والقضاء عليهم وانتظر فى منتجع شروان حتى انقضاء شتاء عام ١٣٩٤ ـ ١٣٩٥م وأرسل إلى سمرقند يطلب المزيد من الجنود والعتاد للمعركة القادمة.

حاول توقتميش عرض الصلح على تيمورلنك وأن يثنى عزمه عن غزو أراضى قبيلته ودولته فأرسل إليه رسالة عبر فيها عن ندمه وأسفه وأن ما حدث منه كان نتيجة بطانة السوء حوله ولكن تيمورلنك ذا الشخصية القوية لم تظل عليه خدعة توقتميش ورأى أن الفرصة سانحة للقضاء عليه.

وبالفعل التقى الجيشان على ضفاف نهر ترك فى أبريل عام ١٣٩٥م وكانت معركة شرسة حتى كادت الهزيمة تلحق بتيمورلنك وارتبك جيشه حتى كاد أن يقتل وكان عمره يومئذ قد تجاوز الستين بعامين وانقض عليه توقتميش وجنوده وقد أصبح معزولاً عن جنوده وأحيط به وقد كسر سيفه إلا أن أحد قواده فى اللحظات الأخيرة أدركه ومعه بعض الجنود الذين أحاطوا به فأنقذوه من موت محقق.

وانقلب النصر المؤقت الذى حققه توقتميش إلى هزيمة منكرة ومجزرة سالت فيها الدماء أنهاراً من الطرفين.

وهرب توقتميش كعادته وتفرقت جيوشه وهرب معظمها إلى القرم وهنغاريا وأدريانويل ثم انضم الكثير إلى تيمورلنك الذى أصبح سيد المغول وقائدهم بلا منازع.

ولأن توقتميش كان سريع الهرب ثم يظهر مرة أخرى بقوة فكان لازماً على تيمورلنك مطاردته كما فعل مع السلطان أحمد بن أويس فطارده حتى نهر كورا حيث معسكره واستولى على ما استطاع من غنائم هناك وتابعه إلى الشمال عبر وادى الفولجا ولكنه لم يدركه لأنه هرب إلى غابات البلغار على ضفاف نهر «كاما» وهو مخبأ جيد للهاربين فاضطر جنود تيمور للعودة.

وقام ابن تيمورلنك ميران شاه يتابع الغزو للمنطقة الغربية للقبيلة الذهبية ومنها منطقة قراسو ـ أوكرانيا ـ فاستولى عليها وعلى عاصمتها شهر سراى حتى وصل إلى المنطقة البولندية ثم لحق بأبيه على حدود موسكو ومعه الغنائم والأسرى.

وقام تيمورلنك بغزو موسكو وأصاب أهلها الهلع والخوف من بطش تيمورلنك منذ تحركت أعلامه على نهر الدون وخرج أهلها يجأرون ويصرخون باسم أم إلههم العذراء مريم أن تنقذهم.

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن تيمورلنك دخل موسكو ونهبها والبعض الآخر يقول إنه غادرها ولم يلحق بها أى أضرار واتجه إلى الأراضى الإيرانية للقضاء على ثورة قامت ضده.

واستطاع تيمورلنك إخضاع المستوطنات الأوروبية على ضفاف بحر أزوف وقد أعمل تيمور السيف فى من صادفه من جنود بندقيين وجنويين وباسك والقوانيين فقد أصبح جنكيزخان آخر شديد القسوة مع البشر.

وقبل مغادرة تيمورلنك بلاد القبيلة الذهبية قام بتولية خان مغولى منهم يدعى قتلغم تيمور ولم يفلح توقتميش من إعادة دولته وبناء جيش كما فعل فى السابق ودخل فى صراع مع منافسيه من أمراء الأسرة الحاكمة من أحفاد

جوجى بن جنكيز خان وحاول التحالف مع أحد الأمراء من العائلة الحاكمة ويدنى فيتورسك الذى استطاع أن يفرض نفوذه على الأمراء الروس وأراضيهم.

وحاول توقتميش محاربة الخان الجديد الذى عينه تيمورلنك على بلاده فانهزم فى معركة على نهر وورسكلا وهو أحد روافد نهر الدنيبر فى أغسطس ١٣٩٩ واختفى ذكره بعدها حتى قيل إنه قتل فى إحدى مدن سيبيريا عام ١٤٠٦م.

وقام تيمورلنك بمتابعة غزواته لبلاد القبيلة الذهبية فسار على نهر الفولى وسفوح جبال القوقاز وقد أغار من قبل على المستعمرة الجنوبية تانا عام ١٣٩٥م على ساحل بحر أزوف قرب مصب نهرى الدون فأغار على المدينة وقتل سكانها وكانوا من غير المسلمين وأحرق المدينة وكان قد أعطى أهلها الأمان.

وحاصر مدينة حاجى ترخان - استرخان - الواقعة على مصب نهر الفولى فى بحر قزوين بحر الخزر وقام بمجزرة بعد سقوط المدينة وأحرق المدينة على مرأى من أهلها وسكانها.

وقام بمهاجمة عاصمة القبيلة الذهبية مدينة بركة سراى والتى دافع عنها قوات مملوكية وكيبتشاقية واستطاع فتح المدينة وطرد سكانها منها ثم أشعل فيها النيران وجعل أهلها فى العراء حتى ماتوا من برد الشتاء القاسى والثلوج.

وكان أسلوب تيمورلنك فى تلك السنوات هو تدمير كل المدن التى قام بفتحها وغزوها.

وقام تيمور بمذابح بشرية فى عاصمة القبيلة الذهبية حتى إنه وجدت مقابر جماعية غرب بركة سراى بداخلها هياكل عظمية بشرية مقطوعة الرؤوس والأقدام والأيدى من آثار الاجتياح المغولى التيمورى لها.

وعاد تيمورلنك إلى بلاد ما وراء النهر مخلفاً وراءه الخراب والدمار ووصل إلى أذربيجان وذلك فى ربيع عام ١٣٩٦م وقد أصبح اسم تيمورلنك يلقى الرعب فى القلوب والنفوس البشرية على وجه الأرض شرقاً وغرباً حتى إنه سار بجيوشه إلى الشرق الآسيوى حيث بلاد الهند والصين.



غزو بلاد الهند

- صراع تيمورلنك مع حكام الهند المسلمين يظهر الأهداف الحقيقية التوسعية ويوقف المد الإسلامى فى تلك البلاد كما أوقفها فى بلاد أخرى غزاها الطاغية.
- مذابح رهيبة فى بلاد الهند لم تفرق بين المسلمين وغيرهم على أيدى تيمورلنك قبل اقتحام العاصمة دلهى وبعدها.



تيمورلنك يغزو بلاد الهند استكمالاً لتوسيع إمبراطوريته جهة الشرق

بلاد الهند قديماً غير دولة الهند الحالية فقد كانت تضم باكستان وبنجلادش وكشمير حتى أواسط القرن الماضى ورحيل الاستعمار الإنجليزى عنها وكانت تلك البلاد مطمعاً لكل مستعمر وطاغية فهى بلاد الأساطير والكنوز والخيرات.

وقد حكمها سلاطين مسلمون منذ الفتح الإسلامى لها وقد خضعت لحكم الخانات المغول المسلمين من نسل جغطاى بن جنكيز خان وآخرهم أسرة تغلق تيمور.

ثم كثرت الثورات فيها ولكنها مازالت حتى عصر تيمورلنك تحت سلطة الحكام المسلمين.

ورغم أن بلاد الهند لم تشكل أى تهديد لخانات المغول منذ جنكيز خان حتى عهد تيمورلنك إلا أن الأخير رغب فى احتلالها وضمها إلى أملاكه وإمبراطوريته وكان دافعه الحقيقى هو دافع أى طاغية أو مستعمر نهب ثروات البلاد وكان الهدف المعلن منه الدفاع عن الإسلام ومحاربة الوثنيين!!

وبدأ تيمورلنك النظر إلى جهة الشرق الأقصى حيث بلاد الهند والصين وبعد أن انتهى من صراعه مع أبناء عمومته من القبيلة الذهبية فأرسل حفيده محمد سلطان وأمره باجتياح الحدود مع بلاد الهند.

فقام محمد السلطان باحتلال مدينة ملتان الهندية ثم اتبعه تيمورلنك بجيشه الجرار فى ١٣٩٨م وقوامه أكثر من تسعين ألف فارس وعبر بهم نهر

أموداريا متجهاً نحو الهند من خلال الأراضى الأفغانية وبقى عبر نهر السند

والتقى بقواته التى يقودها حفيده عند ملتقى نهر جين - آب وكان خفيده قد قدم من مدينة «ملتان» وقام تيمورلنك بمذابح بشرية لكل القرى الهندية التى صادفها فى طريقه دون تفريق بين المسلمين وغيرهم لإثارة الرعب فى المدن الأخرى القادم لها كعادة جنكيزخان وهولاكو طغاة المغول وأسياده السابقين.

هكذا استطاع تيمورلنك أن يحيط العاصمة دلهى قبل الإغارة عليها عام ١٣٩٨م.

فقد اتخذ من قرية كهيتال قاعدة له ثم عبر نهر جمنة وهو فرع من نهر الكانج حيث تقع دلهى على ضفته واستولى على حصن «لونى» شمال شرق دلهى ثم نقل قيادة الجيش إليه وأحاطت قواته بالعاصمة من الغرب والشمال ودقت طبول الحرب والاستعداد لغزو المدينة وكان مع جيش تيمورلنك نحو مائة ألف أسير من الهنود فأصدر أوامره بقتل الذكور منهم الذين كانوا فى سن القتال فكانت مذبحة عظيمة قبل قيامه بالهجوم على دلهى.

وقام تيمورلنك ومعه سبعمائة من فرسانه لعمل استطلاع لأرض المعركة وتحديد المكان المناسب للهجوم كما كان يفعل دوماً فى معاركه السابقة فعبر نهر جمنه فإذا هم بحوالى أربعة آلاف فارس ألف من المشاة والأفيال الهندية الشهيرة وكان سلاحاً لم يألفه تيمورلنك وجنوده فى المعارك الحربية هاجمت هذه الجموع تيمورلنك ومن معه من الفرسان.

إلا أن تيمور وفرسانه استطاعوا الفرار من هذا الكمين وعبروا النهر واستعدوا للمعركة الفاصلة التى بدأت بالفعل فى كانون الأول عام ١٣٩٨م.

استخدمت فى تلك المعركة الأفيال الهندية من جانب الجيش الهندى وهو سلاح جديد لم يألفه تيمور فى معركة سابقة ولكنه استعد له وكانت تلك المفاجأة التى صنعها تيمور فى معركة دلهى.

فقد كانت الأفيال تصدر أصواتاً فترعب الخيول ويتم تركيب أبراج عليها.

ولهذا أمر تيمورلنك بنشر كميات كبيرة من القطع المعدنية الحادة على

شكل مثلثات الأطراف وغرسها فى أرض المعركة التى ستسلكه الأفيال.

وقد حدث ما أراده تيمور بالفعل فقد داست هذه الأفيال عليها مما جعلها تضطر للبروك على الأرض من شدة ما صنعت تلك الأشواك الحادة فى أرجلها.

وكان تيمور قد أعد الكثير من الإبل وقد وضع على ظهورها فتائل من القطن المغموس بالزيت أشعل فيها النيران عند الهجوم ووضع تلك الفتائل المشتعلة فى أدبار الإبل فانطلقت فى أرض المعركة تصدر أصواتاً مزعجة من ألم الاحتراق التى أصابها فاصدمت بالإبل التى تصرخ من الألم لما أصاب أرجلها من الأشواك المعدنية.

وانتهت المعركة بانتصار حاسم لتيمورلنك.

ودخل تيمورلنك دلهى فاتحا منتصراً واستتبت الأمور فيها لصالحه وصلى فى الجامع الكبير ودعا الخطيب على المنبر له كما يفعل مع الملوك والرؤساء.

ولكن بعد مضى أسبوع على تواجده بها قامت قواته وعساكره بنهب المدينة فاشتبك معهم التجار والأهالى فحدثت مجزرة قتل فيها مائة ألف من الأهالى وأقيم من رؤوسهم المقطعة أبراجاً كما فعل فى غيرهم من الشعوب التى قام تيمور بدخولها بالحرب.

وغادر تيمور بلاد الهند فى ١٣٩٩م شهر كانون الثانى متجهاً إلى عاصمة إمبراطورية «سمرقند» وتم بيع الأسرى فى أسواق العبيد بأرخص الأثمان.

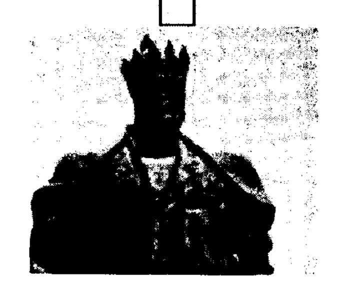
وهكذا قام تيمورلنك بالتنكيل بأهل الهند من المسلمين وغير المسلمين مما أضر بالإسلام فى هذه البلاد التى دخلها منذ القرن الهجرى الأول سلماً دون قتال.

■ ■ ■



تيمورلنك ودولة المماليك

- ضعف دولة المماليك في الدفاع عن مدن الشام الشمالية أدى إلى سقوطها فى يدىْ تيمورلنك.
- تيمورلنك واحتلال دمشق بالخديعة والمكر.
- تخريب تيمورلنك دمشق بعد احتلالها.



ضعف المماليك فى الدفاع
عن مدن الشام الشمالية
أدى إلى سقوطها فى يدىْ تيمورلنك

حدثت تطورات سياسية جديدة فى سلطنة المماليك عجلت بالصدام مع تيمورلنك فقد مات السلطان برقوق فى شوال سنة ٨٠١ هـ يونية ١٣٩٩م وخلفه ابنه الناصر فرج الذى كان لا يزال طفلاً فى حوالى العاشرة من عمره.

فنشبت الاضطرابات وكثرت الفتن والمؤامرات فى مصر وسوريا حتى استلزم الأمر خروج السلطان الناصر فرج مع جيشه من مصر فى حملة ضد نائب دمشق الثائر.

فى الوقت الذى كانت البلاد فى أمس الحاجة إلى سلطان قوى يستطيع صد الهجمة البربرية التى كان يعدها تيمورلنك على بلاد الشام.

بل إن السلطان العثمانى بايزيد الأول الذى كان حليفاً للظاهر برقوق استغل الظروف السيئة التى كانت تمر بها دولة المماليك آنذاك واستولى على ملطية وكانت داخلة ضمن نفوذ دولة المماليك فى مصر.

وأعلن تيمورلنك أسباب القيام بحملته على بلاد الشام فقد قام الأمير يوسف التركمانى بحملة على منطقة وان فى أرمينيا سنة ٧٩٨ هـ - ١٣٩٥م وأسر أحد أقرباء تيمورلنك وهو الأمير أطلمش ثم أرسله إلى القاهرة فظل محبوساً بها وعندما أرسل تيمورلنك إلى الظاهر برقوق طالباً الإفراج عن أطلمش رفض برقوق ذلك الطلب إلا إذا أطلق تيمورلنك من جهته سراح الأمراء المماليك المأسورين لديه.

لكن تيمورلنك بسبب مشاغله لم يستطع مواجهة برقوق وكذلك فإن أحمد

ابن أويس بعد أن عاد إلى عرشه فى بغداد نائبا عن الظاهر برقوق استغل الثورة التى نشبت ضد ميران شاه بن تيمورلنك فى أربيجان والمناطق الأخرى الخاضعة له فى عراق العرب والعجم، استغل أحمد بن أويس هذه الثورة وغزا أذربيجان.

وعندما وصلت تلك الأخبار كلها إلى تيمورلنك أدرك أن الوقت قد حان لشن الهجوم على بلاد الشام والانتقام من المماليك(١).

بدأ تيمورلنك حملته فى أوائل عام ٨٠٣ هـ - أغسطس ١٤٠٠م بأن كلف بعض قادته بالزحف على بغداد ونظرا لسوء إدارة أحمد بن أويس وإسرافه فى قتل عدد كبير من أتباعه فقد نشبت فى تلك الظروف ثورة ضده فى المدينة أجبرته على الفرار منها لطلب المساعدة من قرا يوسف التركمانى كما ذكرنا هذا فى الوقت الذى كان تيمورلنك قد وصل إلى سيواس على رأس قواته.

ولم يجد أحمد بن أويس وقرا يوسف التركمانى بعد أن أدركا خطورة العودة إلى بغداد سوى الفرار فى اتجاه الشام ومنها إلى الأناضول حيث طلب أحمد بن أويس اللجوء إلى السلطان العثمانى بايزيد الأول خصم تيمورلنك.

وعندما طلب تيمورلنك من السلطان العثمانى تسليمه أحمد بن أويس رفض فى عبارات لا ترضى غرور خصمه فأسرها تيمورلنك فى نفسه وأجل انتقامه إلى ما بعد الانتهاء من معركته مع المماليك إذ قدر أن المناسب له القضاء أولاً على القوة التى قد تهدد مؤخرته فى حالة الحرب مع السلطان العثمانى بايزيد الأول.

وقد تحقق له ما أراد من كسر شوكة المماليك ثم غزو وهزيمة العثمانيين كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

وزحف تيمورلنك من سيواس بعد أن نهبها إلى ملطية فاستولى عليها ثم نزل على بهسنا ثم عينتاب فأحرق ضياعها وقتل معظم سكانها وذلك فى المحرم

---

(١) تاريخ المغول - حوادث مصدر سابق، تاريخ ابن قاضى شهبة.

من سنة ٨٠٣ هـ ـ ١٤٠٠م. ومنها اتجه إلى حلب فضرب مخيمه أمام أسوارها فى أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ ـ أواخر أكتوبر ١٤٠٠م على رأس جيش ضخم بالغ بعض المؤرخين فى عدده حتى قالوا إنه قارب المليون لكنه فى الحقيقة تجاوز المائة ألف إلا قليلاً.

وحدد تيمورلنك أهداف حملته على المماليك فى رسالة بعث بها من معسكره فى بهنسا إلى نائب دمشق سودون وإلى المشايخ والقضاة والأعيان فى المدينة قال فيها: «بأنه قدم فى عام أول إلى العراق يريد أخذ القصاص ممن قتل رسله بالرحبة ثم عاد إلى الهند لم ابلغه بما ارتكبوه من الفساد فأظفره الله بهم فبلغه موت الظاهر فعاد وأوقع بالكرج ثم قصد لما بلغه قلة أدب هذا الصبى ـ أبا يزيد العثمانى أن يعرك أذنه ففعل بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة ويذكر اسمه فى الخطبة ثم يرجع بعد أن يقرر سلطان مصر بها.

وطلب أن يرسل إليه أطلمش ليدركه بملطية أو حلب أو دمشق وإلا فتصير دماء أهل الشام وغيرهم فى ذمتكم غير أن سودون نائب دمشق لم يفزع لذلك التهديد بل أمر بقتل رسل تيمورلنك[1].

واستعمل تيمورلنك الدهاء والدبلوماسية مع خطواته الحربية إذا عمل على بذر بذور الشقاق فى صفوف المماليك فى الشام فأرسل سفيراً من قبله إلى الأمير دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره فى نيابته، ويطلب منه فى نفس الوقت القبض على سودون نائب دمشق لأنه قتل سفير تيمورلنك الذى توجه إليه من قبل.

فلما أخبر دمرداش باقى الأمراء الذين قدموا من سائر أنحاء بلاد الشام قال سفير تيمورلنك لدمرداش إن الأمير أى تيمورلنك لم يأت البلاد إلا بمكاتبتك إليه وأنت تستدعيه أن ينزل إلى حلب وأعلمته أن البلاد لم يبق بها

---

(١) انظر السلوك ـ المقريزى مصدر سابق ـ إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلانى، قيام دولة المماليك الثانية ـ د. حكيم أمين.

أحد يدفع عنها فغضب منه دمرداش وأمر بضرب عنقه.

ويبدو أن دمرداش كان يعتقد أن قوات المماليك قادرة على الوقوف فى وجه تيمورلنك ومنعه من مواصلة غزو الشام وهذا دليل على سوء تقدير أمراء المماليك لقوات تيمورلنك وعدم إدراكهم لحالة التفكك التى سادت الجيش المملوكى فى عهد الناصر فرج من ناحية أخرى.

وكان نائب حلب قد استنجد بنواب المدن الشامية الأخرى مثل دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة لمواجهة تيمورلنك وقتاله داخل مدينة حلب أو خارجها واستقر أمرهم فى نهاية الأمر على الخروج لقتاله خارج المدينة بعد أن تأخر حضور السلطان الطفل الناصر فرج وقواته.

وبعد مناوشات من سكان المدينة الذين ركبوا أسوارها خرجت قوات المماليك واشتبكت مع قوات تيمورلنك فى قتال عنيف غير أن القتال لم يكن متكافئاً فنجح تيمورلنك فى إنزال الهزيمة بالمماليك[1] وأخذ يتبعهم إلى داخل حلب قتلاً وأسراً فضلاً عما هلك من قوات المماليك تحت حوافر خيل جيش تيمورلنك.

واقتحمت قوات تيمورلنك مدينة حلب فى ١١ ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ ـ ٢ نوفمبر ١٤٠٢م وأشعلت النيران وظلت أربعة أيام تعيث فساداً داخل المدينة فقتلت الأطفال جميعاً وأسرت النساء وارتكبت الفاحشة وقتلت بالسيف كل السكان دون تمييز حتى امتلأت المساجد والطرقات بالقتلى كما أسرت قوات تيمورلنك الأمراء والمماليك الذين اجتمعوا بقلعة المدينة فأمر تيمورلنك بحبسهم جميعاً ومعهم نائب حلب.

وبعد أن تم نهب كنوز المدينة أعملت قوات تيمورلنك معاول الهدم فيها ثم أشعلت النيران حتى أصبحت حلب موحشة مظلمة تنعى أطلالها مثل باقى المدن التى اقتحمها تيمورلنك.

ثم غادر تيمورلنك وقواته مدينة حلب بعد أن أقاموا فيها شهراً واتجهوا

(١) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك ـ مصدر سابق. وبدائع الزهور ـ مصدر سابق.

إلى دمشق وفى نفس الوقت كان ميران شاه بن تيمورلنك قد استولى على حماه فى ١٤ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ ـ ٥ نوفمبر ١٤٠٠م وفعل فيها مثلما فعل أبوه فى حلب.

كما استولى رجال تيمورلنك أيضاً على حمص وبعلبك وقد عفا تيمورلنك عن حمص احتراماً لقبر خالد بن الوليد.

فى حين نهب بعلبك رغم طلب أهلها الصلح والأمان ووصلت فرسان تيمورلنك حتى منطقة ساحل البحر المتوسط حيث نهبت صيدا وبيروت[١].

أما السلطان فرج وحاشيته فلم يضعوا الخطط الفورية لمواجهة الغزاة بل تشاغل السلطان عن ذلك بشرب الخمر وسماع الموسيقى حتى تمكن تيمورلنك من البلاد وعم فيها الفساد.

بالإضافة إلى أن السلطان وحاشيته رفضوا دعوة السلطان العثمانى بايزيد لاجتماع الكلمة وتكوين حلف ضد تيمورلنك بحجة أن السلطان العثمانى استغل وفاة الظاهر برقوق واستولى على ملطية وكانت خاضعة لسلطنة المماليك.

وكان رفض المماليك التحالف مع السلطان العثمانى بايزيد الأول قراراً خاطئاً لأنه أتاح فرصة ذهبية لتيمورلنك لمواجهة أعدائه كل على حدة هذا فضلاً عما كان فيه الأمراء المماليك فى القاهرة آنذاك من صراع وتنافس ورغبة كل منهم فى الوصول إلى منصب السلطنة.

وحين جاءت تحذيرات نواب الشام واستنجادهم بالسلطان فرج استدعى الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة فى المحرم سنة ٨٠٣ هـ ـ أغسطس ١٤٠٠م للتشاور فى جمع الأموال من التجار والاستيلاء على نصف الأوقاف لإنفاقها فى إعداد القوات العسكرية اللازمة لحرب تيمورلنك ولكن القضاة اعترضوا على تلك الإجراءات وتقرر أخيراً إرسال مبعوث خاص إلى بلاد الشام هو من الأمراء لكشف الأخبار وتعبئة قوات الشام.

---

(١) المصادر السابقة.

ومع أن مبعوث السلطان إلى بلاد الشام أيد فى تقاريره أنباء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام.

ووردت الأخبار إلى القاهرة فى أواخر ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - نوفمبر ١٤٠٠م باستيلاء تيمورلنك على حلب.

إلا أن السلطات الحاكمة فى مصر لم تتخذ إجراءات التعبئة العسكرية الفورية بل حاولت التنصل من المسئولية بتكذيب تلك الأخبار والقبض على مروجها ليعاقب على افترائه.

أما علماء الدين فى مصر على عكس ذلك تماماً إذ طاف شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى مع القضاة فى شوارع القاهرة ونادوا فى الناس بالجهاد فى سبيل الله ضد العدو الذى أخذ البلاد وقتل الأطفال على صدور الأمهات وخرب الدور والمساجد فاشتد جزع الناس واتهموا السلطان والأمراء بالتقصير فى الدفاع عن الدولة ولم يستطيعوا فعل شىء كعادة الشعوب المغلوبة على أمرها.

وعاد مبعوث السلطان الناصر فرج من مهمته فى بلاد الشام إلى مصر فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ وقدم تقريراً إلى السلطان باستيلاء تيمورلنك على حلب وقلعتها بالتواطؤ مع نائبها الأمير دمرداش[١].

شعر الناصر فرج بخطورة الموقف واستعد للحرب وأصدر أوامره لأمرائه بتعبئة قواتهم وعرض أجناد الحلقة وجمع الخيول والجمال.

ثم تحرك السلطان بقواته فى الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ - ٢٦ نوفمبر ١٤٠٠ م أى أنه أضاع من الوقت حوالى ثلاثة أشهر دون أن يقوم بأى عمل جاد منذ بدء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام ولكن السلطان عجز عن وضع خطة عسكرية ناجحة للدفاع عن الدولة وقد اقترح الأمير تغرى بردى أن يذهب بنفسه إلى دمشق لتحصينها والدفاع عنها ضد تيمورلنك على أن

(١) الدليل على تواطؤ نائب حلب أن تيمورلنك حين أسره عامله معاملة كريمة دون غيره من الأسرى المماليك.

يظل السلطان الناصر فى معسكره بغزة يمده بالقوات دفعة بعد أخرى فإذا واصل تيمورلنك زحفة إلى مصر وقع بين قوات دمشق التى يقودها تغرى بردى وبين قوات السلطان الناصر فرج فى غزة.

غير أن باقى الأمراء اعترضوا على تلك الخطة وشككوا فى إخلاص الأمير تغرى بردى بأنه قد ينقلب.

وكان تيمورلنك قد أرسل سفراءه إلى القاهرة فى أثناء حصاره مدينة حلب متظاهراً بطلب السلام وعقد الهدنة مع الناصر فرج غير أن هدف تيمورلنك الحقيقى كان التجسس على أحوال السلطان وبذر بذور الشقاق بين أمراء المماليك فى مصر فقد عرض سفراء تيمورلنك شروطاً مهينة على السلطان هى: أن تحمل العملات الذهبية التى تسك فى أراضى السلطان فرج اسم تيمورلنك وأن يدفع السلطان مبلغاً كبيراً من المال وأن تقام الخطبة فى المساجد باسم تيمورلنك.

أى أن تكون مصر تابعة لإمبراطورية تيمورلنك مثل باقى الدول التى قام باحتلالها.

■ ■ ■

تيمورلنك واحتلال دمشق بالخديعة والمكر

واصل تيمورلنك زحفه على دمشق وأرسل إلى نائب السلطان بها يدعوه للاستسلام فاضطرب السكان وبوجه خاص بعد سماع قصص التعذيب والتنكيل التى أذاعها الهاربون من المناطق التى استولى عليها تيمورلنك وفى تلك الظروف وصل الناصر فرج إلى دمشق فى السادس من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ ٢٣ ديسمبر ١٤٠٠م وضرب مخيمه عند قبة يلبغها بظاهر المدينة وأخذ فى الاستعداد لمواجهة تيمورلنك الذى أقام معسكره على قبة السيار غربى قبة يلبغا بحوالى الميلين وأخذ فى مراقبة الناصر فرج.

وأسفرت المناوشات الأولى بين الجانبين عن هزيمة كبيرة لمقدمة جيش تيمورلنك إلا أنه نصب كميناً لقوات الناصر فرج أسفر عن مقتل عدد كبير منها ومع ذلك فلم يتمكن تيمورلنك فى ذلك الوقت من اقتحام مدينة دمشق واستخدم أساليب الدهاء والشائعات للتمويه على الناصر فرج وقواته فأشاع خمسة من جواسيسه الذين وصلوا طرابلس بأن نصف جيش تيمورلنك عازم على الدخول فى طاعة السلطان فرج.

وأن ملك قبرص سيقدم المساعدة للسلطان كما أشاع تيمورلنك بأنه راحل عن دمشق إلا أن ابن أخته جاء إلى معسكر السلطان فرج وادعى أنه اختلف مع خاله وأن أمر تيمورلنك فى التلاشى[1].

واستطاع تيمورلنك بدهائه وعن طريق جواسيسه أيضاً استثمار اختلاف الأمراء المماليك على السلطان الناصر فرج فأرسل إلى السلطان طالباً الصلح على أن يطلق الناصر فرج سراح الأمير أطلمش مقابل الإفراج عن الأمراء

(١) المصادر السابقة.

المماليك المقبوض عليهم فى معركة حلب ودب الانقسام فى صفوف قوات الناصر فرج إذ رأى فريق مواصلة القتال وقد ظن ذلك الفريق أن تيمورلنك قد طلب الصلح لعجزه عن قتالهم فى حين رأى فريق آخر الاستجابة لطلب تيمورلنك وقف القتال.

ونتيجة لذلك الانقسام فى الرأى فإن فريقاً ثالثاً قد أيقن بحلول الهزيمة وقرب زوال دولة الناصر فرج وبادر ذلك الفريق بالاختفاء من المعركة.

ثم أشيع فى دمشق أن الأمراء الهاربين قد توجهوا إلى مصر كى يساعدوا الأمير لاجين الجركسى فى الجلوس على العرش فأسرع السلطان وباقى الأمراء بمغادرة دمشق فى الحادى والعشرين من جمادى الأول سنة ٨٠٣هـ - ٧ يناير ١٤٠١م لتدارك الأمر فى القاهرة وتركوا دمشق بلا قيادة تنظم أمورها أو قوات تدافع عنها وقد نهبت العشائر قوات المماليك فى أثناء انسحابها إلى مصر وسلبوا ما معهم من أموال وأسلحة وأمتعة.

وواجه سكان دمشق بعد رحيل الناصر وقواته موقفاً حرجاً فأغلقوا أبواب المدينة وتسلقوا أسوارها ونادوا بالجهاد بل ونجحوا فى صد هجوم لقوات تيمورلنك عليها.

وقام تيمورلنك بأعمال الحيلة للاستيلاء على المدينة بدلاً من اقتحامها فقد كان غرضه دخول دمشق بأقل خسائر ممكنة.

ومن أجل ذلك أرسل تيمورلنك رجلين من أتباعه يعرضان على سكان دمشق قبول الصلح وبعد مناقشات وخلافات بين زعماء المدينة وافق هؤلاء على إرسال القاضى ابن مفلح الحنبلى إلى تيمورلنك من أجل المفاوضة على شروط التسليم فاستعمل تيمورلنك أسلوب الخداع مع القاضى ابن مفلح إذ وعده بالانسحاب بعد تقديم سكان دمشق الهدايا وفقاً لعادات المغول.

وكان مما قاله تيمورلنك للقاضى ابن مفلح: «هذه بلد الأنبياء وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عن أولادى.

غير أن نائب قلعة دمشق لم يوافق على شروط تيمورلنك وصمم على القتال وأغلق أبواب المدينة حتى اضطر القاضى ابن مفلح ووفد من أعيان المدينة إلى النزول فيما بعد من على الأسوار.

وقام تيمورلنك بمنح أهالى دمشق أماناً شريطة أن يدفعوا له مبلغ مليون دينار وعهد إلى موظفين من أعيان دمشق وقضاتها بجمع الأموال المطلوبة وطلب فتح أبواب المدينة وعين نائبها عنه فى حكم دمشق.

وفرح القضاة والأعيان بهذا العرض فراحوا يروجون الأخبار عن محاسنه وتقواه وحثوا الناس على جمع الأموال وذكروا عنه أنه زار قبر أم حبيبة إحدى زوجات رسول الله ﷺ فلما زاره قال: «يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة عليه؟ فأنا إن شاء الله تعالى أبنى عليه قبة».

وذكروا عنه أيضاً: «أنه كان فى مجلسه يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه وأن السبحة لا تزال فى يده».

وفى ذلك الوقت عندما كان تيمورلنك فى معسكره خارج المدينة التقى به المؤرخ المشهور ابن خلدون وأجرى معه مناقشات فى كثير من الموضوعات التاريخية والدينية وتشفع ابن خلدون لدى تيمورلنك فى بعض مواطنى دمشق فأجابه تيمورلنك إلى طلبه.

أفعال تيمورلنك فى دمشق من الدمار والخراب

وحين جمع القضاة والأعيان المبلغ الذى طلبه تيمورلنك لكنه لم يقتنع به وألقى القبض عليهم وحبهسم حتى التزموا بجمع مبلغ عشرة ملايين دينار ذهباً.

ثم أصدر أوامره لقواته بمحاصرة قلعة دمشق حتى استسلمت بعد قتال شديد استمر تسعة وعشرين يوماً رغم قلة عدد المقاتلين فيها.

ورفض تيمورلنك المبلغ الذى جمعه القضاة والأعيان بثقة زائدة من سكان دمشق ومن أوقاف المساجد والمدارس والمشاهد والربط والزوايا وبلغ عشرة

ملايين دينار ذهباً وذلك بحجة اختلاف العملة وفسادها وقدر ذلك المبلغ بثلاثة ملايين فقط.

كما صادر أموال وممتلكات الناصر فرج والقوات المصرية بأسرها من أسلحة ودواب كما استولى على أموال كل من هرب من سكان دمشق وألزم تيمورلنك القضاة والأعيان بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها كما قام مندوبون عنه بإثبات البضائع والأموال التى بيد التجار فى قوائم جرد وبعد أن وزع أحياء المدينة على أمرائه وأطلقهم داخلها بأتباعهم وجواسيسهم فعاثوا فيها فساداً وطلبوا لأنفسهم أموالاً ضخمة.

ولما عجز السكان عن السداد أنزل جنود تيمورلنك بهم أقسى أنواع العقوبات من الضرب والحرق وارتكاب الفاحشة.

ثم دخل بعض هؤلاء الأمراء وأتباعهم إلى المدينة وسيوفهم مسلولة مشهورة فمارسوا النهب والسبى قدر استطاعتهم.

وأضرموا النار فى المنازل والمساجد لاسيما جامع بنى أمية الذى تهدمت سقفه وحوائطه وهلك معظم سكان المدينة الذين كان يقدر عددهم آنذاك بمائة ألف.

وقد شاهد الرحالة الأوروبى بروكيير الذى زار دمشق بعد ثلاثين سنة من هجوم تيمورلنك عليها شاهد آثار التدمير فى قلعة المدينة كما أن أحد أحيائها كان لا يزال متهدماً لم يتم بناؤه بعد.

أما الحى المسيحى فى شرقى دمشق فكان الحى الوحيد الذى لم تمتد إليه يد التخريب وهذا أكبر دليل على أن تيمورلنك كان يعمل لصالح غير المسلمين من اليهود والنصارى والماسونية أيضاً.

وغادر تيمورلنك مدينة دمشق يوم السبت الثالث عشر من شهر شعبان سنة ٨٠٣هـ ـ ١٩ مارس ١٤٠١م مصطحباً معه فى عودته كل الحرفيين والعمال المهرة الذين حفلت بهم دمشق بعد أن قبض عليهم وبذلك فقدت دمشق قدرتها الصناعية

والاقتصادية لفترة طويلة وهو فى ذلك يفعل كما فعل قدوته جنكيز خان.

أما السلطان الناصر فرج فقد شرع بعد عودته إلى القاهرة فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٣هـ - يناير ١٤٠١م فى تجهيز قوات جديدة لإرسالها إلى دمشق ومن أجل ذلك أذن الناصر فرج للأمير يلبغا السالمى فى جمع الأموال المطلوبة فتعسف يلغا فى ذلك تعسفاً شديداً حتى فرض على سائر أراضى مصر المقطوعة للسلطان والأمراء والأجناد عن كل ألف دينار خمسمائة درهم فضة كما أخذ من سائر أراضى البر والصدقة عن كل فدان عشرة دراهم.

وكما جبى من أصحاب العقارات فى القاهرة أجرة شهر.

غادر تيمورلنك دمشق للتحضير لصدام كبير مع السلطان العثمانى بايزيد الأول ثم استطاع تيمورلنك أن يلحق بخصمه الكبير هزيمة ساحقة وأسره فى معركة أنقرة ثم أرسل بعدها إلى الناصر فرج طالباً الإفراج عن الأمير أطلمش فاستجاب له السلطان الناصر هذه المرة فخلع الناصر فرج على أطلمش وجهزه وأعاده إلى بلاده.

ونفذ السلطان ما طلبه منه تيمور سابقاً من سك العملة باسمه والدعاء له على المنابر فى الخطب فقد أصبح إمبراطوراً لا ينازعه أحد إلا الموت الذى لحقه بعد سنوات قليلة من معركة أنقرة وهو فى طريقه لغزو الصين.

■ ■ ■

11

صراع تيمورلنك مع الدولة العثمانية التركية

- تحالف السلطان العثماني بايزيد الأول مع المماليك والسلطان أحمد بن أويس يدعو تيمورلنك لخوض حروب ضارية معهم.
- معركة أنقرة وهزيمة الأتراك العثمانيين أمام تيمورلنك وأسر السلطان بايزيد الأول واحتلال الإمبراطورية العثمانية وضمها لإمبراطورية تيمورلنك.

تحالف السلطان العثمانى بايزيد مع المماليك والسلطان أحمد بن أويس يؤدى إلى حروب مع الإمبراطورية العثمانية التركية

بعد عودة تيمورلنك من غزو واحتلال بلاد الهند وارتكابه مجازر دموية هناك راح ضحيتها أكثر من نصف مليون نسمة لا ذنب لهم إلا أنهم حاولوا الدفاع عن أوطانهم فى أيلول ١٣٩٩ أى فى نفس العام التى غزا فيها الهند غادر عاصمة بلاده لاستكمال مشروعه الإمبراطورى التوسعى وقد تجاوز عمره الستين وقارب على السبعين إلا أنه لم يهدأ ولم يشبع من سفك الدماء وهدم الحضارات.

ومن أقصى الشرق حيث الأراضى الهندية إلى أقصى الغرب حيث الدولة العثمانية التركية فى آسيا الوسطى وبلاد الشام حيث دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام، أراد تيمورلنك حكم السلاطين المسلمين فى العالم وأسقطهم ولم يسقط حكم الملوك غير المسلمين، فكان وبالاً على الإسلام والمسلمين.

فقد استطاع إسقاط حكم السلطان أحمد بن أويس فى بغداد والعراق كما ذكرنا وأنهى حكم الدولة الجلائرية فى بلاد العراق العربى وهم من المغول أبناء العمومة له وذلك عام ١٤٠١ م.

وسار موكب الإمبراطور تيمور نحو أهدافه ببطء وأبهة وانتهى إلى قراباغ حيث المنتجع المفضل لديه وهو وسط بلاد الترك والروم قضى وقته يكتب الرسائل فأرسل إلى حاكم السهوب الروسية وهو من المغول ويدعى «إيديكو» يدعوه إلى مصادقته كى يأمن جانبه حين يريد غزو الدولة العثمانية.

فكان رد الخان المغولى الموافقة دون وضع السلاح لعدم الاطمئنان

لتيمورلنك وعلمه بأنه غادر وقد جاء ذلك صراحة فى الرد الذى جاء فيه:

«أيها السيد تيمورلنك تتكلم عن الصداقة ولكنى أعرفك جيداً وقد أقمت فى بلاطك عشرين سنة، ومطلع لذلك على حيلك ومخاتلاتك، فإذا كان علينا أن نكون أصدقاء فيكون ذلك والسيف فى أيدينا».

وهكذا أمن تيمور حياد قبائل السهوب.

وأرسل إلى بايزيد الملقب بالصاعقة السلطان العثمانى التركى وطلب منه رد تحالفه مع القرايوسف والسلطان أحمد بن أويس فكان رد بايزيد قاسياً حيث رد عليه قائلاً:

اعلم أنت أيها الكلب العقور المدعو تيمور أن الأتراك لم يتعودوا أن يضنوا بالملجأ على أصدقائهم ولا أن يهربوا من مواجهة الأعداء فى المعركة ولا أن يلجأوا إلى الحيل والأكاذيب والمخادعات[1].

فرد عليه تيمور بما هو مثله من تذكيره بأهله الذى ينتهى إلى بدو التركمان وأن طبيعة هؤلاء البدو البذاءة وسوء الأدب وهدده بقوله:

«إذا أنت لم تتبع نصائحنا فستكون من النادمين فكّر إذن، وافعل ما تراه مناسباً».

فرد عليه بايزيد بالفخر مما حققه من انتصارات على أعدائه من أهل الروم المسيحيين وعدم خوفه من تيمورلنك وجنوده وأنه ابن شهيد فى سبيل الله:

«كنا منذ زمن نتوق إلى خوض الحرب ضدك، وقد تحققت رغبتنا الآن ولله الحمد، وإذا أنت لم تأت من طلبنا، فإنا سوف نطاردك حتى السلطانية، وسوف نرى عندئذ من هو الذى سيغتبط بالنصر ومن سيغتم بالهزيمة».

وأصر تيمورلنك على قيام السلطان العثمانى تسليم الأمير قرايوسف والسلطان أحمد الهاربين عنده حتى لا تقع الحرب بينهما، وأصر السلطان

---

(١) انظر تيمورلنك ـ محمد أسد الله صفا.

العثمانى على موقفه فكانت الحروب بين الطرفين.

فقام تيمورلنك بالإغارة على جيورجيا - الكرخ - شهراً كاملاً عام ١٣٩٩ واحتل العاصمة تفليس عام ١٤٠٠ وطارد ملكها ثم قبل المصالحة مع الملك الجورجى وعاد إلى منتجعه فى قراباغ.

وكما ذكرنا أنه استعاد بغداد وطرد السلطان أحمد وطارده وقضى على أمره عام ١٤٠١ وكل هذا من أجل التفرغ لقتال العثمانيين فى آسيا الوسطى والمماليك فى بلاد الشام.

فى منتصف عام ١٤٠٠ م استطاع تيمورلنك الاستيلاء على جميع مدن سيواس مفتاح آسيا الصغرى وتراجع الجيش العثمانى التركى، وتم دفن أربعة آلاف خيال من الأرمن أحياء فى خندق محيط بأسوار مدينة «سيواس» واحتل «ملطية» وتوغل فى أراضى آسيا الصغرى وأمر جيشه بالتوجه إلى شمال الشام.

وكان تيمورلنك قد أرسل فى خطاباته للسلطان العثمانى بايزيد يطلب منه التخلى عن مدن سيواس وملطية وإبلستين وكماخ باعتبارها ضمن أملاك جنكيز خان وأنه الوريث الحقيقى لها.

ولكن السلطان العثمانى بايزيد كان يرى أن تيمورلنك ليس إلا سفاحاً سفاكا للدماء هتاك للحرم شر الأشرار وأنه مدعى الإسلام معتد على البلدان الإسلامية، ويرى نفسه بطل الإسلام المحارب لأعدائه من غير المسلمين وأن أباه السلطان مراد الأول قضى نحبه شهيداً وهو يقاتل أعداء الإسلام.

لقد قام تيمورلنك أول ما قام بهدفه محاربة السلطان العثمانى باحتلال مدينة سيواس سنة ١٤٠٠م بعد حصار استمر تسعة عشرة يوماً ولم يستطع السلطان العثمانى نجدة ابنه حاكم المدينة وقد استطاع حاكم المدينة وابن السلطان النجاة من الحصار بالهرب والفرار.

وقد قام تيمورلنك وجنوده بهدم المدينة وتخريبها وقتل ما يقرب من أربعة آلاف نسمة وفرض على من بقى حيا من المسلمين إتاوات تسمى ضريبة أموال

الأمان أما الأرمن فقد تم أسرهم وقتل جنود الأتراك العثمانيين وأسر تيمورلنك تسعة آلاف فتاة عذراء إلى بلاده!!.

وقد أدى ما فعله تيمورلنك بالسلطان العثمانى أن جعله يتراجع عن حصاره للقسطنطينية ويترك الجهاد مع أعداء الإسلام من نصارى الغرب وهذا من ضمن إضرار تيمورلنك بالمسلمين والإسلام حين رفع بايزيد حصاره عن القسطنطينية للتصدى لهجوم تيمورلنك على بلاده.

وكانت أولى جولات تيمورلنك مع الأتراك العثمانيين ثم تبعتها خطوات تالية عامة سنة ١٤٠٢م ـ ٨٠٤ هـ حيث قام بتوجيه ضربة للماليك فى شمال الشام كى يأمن جبهته ناحيتهم فى حربه ضد العثمانيين وهذا ما حدث بالفعل وفيه دلالة حسن تدبير وسياسة تيمورلنك عسكريا وسياسيا.

لقد استطاع تيمورلنك من ضرب المدن العثمانية وإعادة احتلال العراق وبغداد فى الفترة من ١٤٠٠، ١٤٠١م وضرب حدود الشام ثم العودة لغرب الدولة العثمانية عام ١٤٠٢م إنها سنوات متتالية منذ خرج تيمورلنك من سمرقند فرحاً بما حققه من انتصارات فى الأراضى الهندية.

ولكن السلطان العثمانى بايزيد الأول الملقب بالصاعقة لم يقدر حجم خطورة تيمورلنك وأصابه الغرور فظل حتى عام ١٤٠١م يتحرك ببطء وعدم اهتمام لما يفعله تيمورلنك فى الخريطة السياسية والجغرافية للعالم وكيف استطاع إعادة سيرة جنكيزخان.

لقد كان تيمورلنك من المغول والأتراك والعثمانيين قد أحاطوا فى البداية حول دولة تيمورلنك وكان يمكن القضاء عليه ولكنه استطاع القضاء عليهم على مراحل واستفاد من إثارة الخلافات فيما بينهم.

وقد كان من الإمكان القضاء على تيمورلنك من جانب الدولة العثمانية فى آسيا الوسطى لو أن السلطان بايزيد الصاعقة قدر حجم تيمورلنك.

واستفاد تيمورلنك من الخلاف الذى حدث بين العثمانيين والمماليك بسبب

استيلاء السلطان العثمانى على ملطية فانفرط عقد التحالف بين الطرفين فقام تيمور بمهاجمة كل طرف على حد.

لقد اعتبر السلطان بايزيد الصاعقة وقومه فاتحين للشرق الأوروبى وانتشار الإسلام فيه وهم من الأتراك القادمين من شمال شرق آسيا وأبناء عمومه للقبائل المغولية لكن الغرور الذى أصاب السلطان بايزيد الصاعقة أصابه فى مقتل فى صراعه مع تيمورلنك المغولى وأدى فى النهاية لمقتل هذا السلطان العثمانى وكان هذا النصر الحقيقى للغرب المسيحى الذى كان يحاربه السلطان العثمانى وليس فى صالح تيمورلنك.

فبعد سقوط «سيواس» فى أيدى تيمورلنك توقف زحف بايزيد على القسطنطنية التى كانت عاصمة لإمبراطورية مسيحية قديمة وقد حاول الكثير من الخلفاء المسلمين منذ عهد معاوية حتى الخلفاء العثمانيين فتحها حتى استطاع أحد السلاطين العثمانيين وهو السلطان محمد الفاتح من فتحها فيما بعد عام ١٤٥٣م.

نعود إلى تيمورلنك الذى كان يضرب ضربته ويهدم المدن التى تسقط فى يديه ثم يتركها ويهدم غيرها وهكذا لا يستقر فى مكان وهذا ما حدث بعد أن احتل مدينة «سيواس» فبعد أن خربها وهدمها قام بايزيد بالعودة من حصار القسطنطينية لمحاربته والتصدى لتيمورلنك فلم يعثر له على أثر حتى ظهر تيمورلنك مرة ثانية ليعلن أنه لا يريد محاربة الأتراك العثمانيين ودارت مراسلات وتبادل خطابات بين تيمورلنك وبايزيد وانتهت تلك المراسلات إلى إعلان السلطان العثمانى عدم ثقته بنوايا تيمورلنك وبالتالى استمرار الحرب بينهما وقد أرادها السلطان العثمانى أن تكون فى مدينة سيواس التى احتلها تيمور.

لكن تيمور أراد أن تكون المعركة داخل عمق الدولة العثمانية فقرر التحرك جنوباً على طول نهر هاليس «قزيل - أرمق» وقد جعل النهر حاجزاً بينه وبين قوات العثمانيين طوال سيره على جانبه وكان بايزيد ينتظر.

وبعد مواجهة محدودة بين الجيشين انتهى لصالح تيمورلنك تم وضع خطته العسكرية للمعركة الفاصلة بحضور قواده فى قرية كوش وعرض عليهم الانتظار فى مكانهم لمواجهة الجيش العثمانى أو التوغل فى أراضيهم وإرهاق المشاة من جنودهم بملاحقتهم.

واختار تيمور خيار المضى قدماً فى الأراضى التركية والتوغل فيها حتى يجبرهم على الملاحقة وإرهاقهم بذلك واستطاع تيمور أن يخفى قواته وهى تتحرك بأن جعل الجبال حاجزاً بينه وبين عدوه وأمر جنوده بتدمير الزراعات والأراضى حيث كان موسم حصاد الخضر والفواكه.

ووصل جيش تيمور إلى قرْب العاصمة أنقرة فاستولى على قاعدة عسكرية استعداداً للمعركة القادمة وقد أغلقت أنقرة أبوابها واستعدت للمواجهة.

وأمر تيمور بناء سدٍّ على النهر الداخل لأنقرة لمنع وصول مياه الشرب لأهلها وهذا ما حدث بالفعل.

ثم قام بتدمير وتلويث ينابيع المياه الباقية التى تصل للمدينة أيضاً.

أما السلطان بايزيد وجنوده كانوا فى طريقهم للعاصمة المحاصرة وقد وصلوا إلى المدنية منهمكين متعبين أما تيمور وجنوده فكانوا أحسن حالاً واستقراراً فى معسكرهم.

بدأت المعركة المعروفة باسم معركة أنقرة وقد ظهرت بوادر الهزيمة على الجيش العثمانى التركى الذى حضر إلى أرض المعركة التى حددها تيمورلنك بنفسه منهكاً من السفر لا يجد الماء ولا الطعام فكان النصر حليف تيمورلنك الذى قارب عمره السبعين بالرغم من أن الجيش العثمانى كان أكثر عدداً من جيش تيمورلنك.

لكن التخطيط السليم وعدم الاستهانة بالخصم كانت من أسباب انتصار تيمورلنك.

لقد استطاع تيمور اجتذاب خصمه إلى أرض المعركة التى حددها وهى أنقرة وكان أسرع منه وصولاً إليها واستطاع تحقيق النصر وذلك عام ١٤٠٢م ـ ٨٠٤ هـ.

وأما عن مصير السلطان العثمانى بايزيد فقد وقع فى الأسر واقتيد إلى معسكر تيمورلنك وقتل كثير من قواده وأسر ابنه موسى معه وقتل آخر فى المعركة وهرب باقى أولاده.

وتوفى بايزيد الصاعقة بعد شهور قليلة من أسره وهو فى الأسر غما وكمداً لما لحقه وأسرته من جراء الهزيمة المكرة وقد احتلت مملكته وعاصمة السلطنة «بورصة» وأسرت نساؤه والاستيلاء على كنوزه.

ورغم ما حققه تيمورلنك من نصر حاسم على العثمانيين الأتراك فى آسيا الوسطى إلا أنه خسر فى معركة أنقرة أحب أحفاده والأثير لديه محمد ثم عمر شيخ.

وواصل تيمورلنك المضى فى أراضى آسيا الوسطى حتى وصل إلى قلعة فرسان القديس يوحنا التى تعرف اليوم بفرسان مالطا[1]، ولكنه لم يقم باحتلالها واكتفى بحصارها حتى خرج فرسان يوحنا منها وترك تيمور فى مدينة «أزمير» قبل مغادرتها هرمين من الرؤوس البشرية المقطوعة كتذكار كعادته.

ولم يقم تيمور بالدخول فى الحدود الأوروبية رغم أنها كانت مفتوحة أمامه واكتفى بما حققه من فتوحات آسيا الوسطى وقفل راجعاً إلى عاصمته وهو يفكر فى غزو بلاد الصين.

ومما نتج عن معركة أنقرة وهزيمة العثمانيين الأتراك هروب كل من السلطان أحمد بن أويس الذى هرب من بغداد بعد احتلالها وتدميرها بواسطة تيمورلنك ومعه الأمير قرا يوسف حيث كانا لاجئين عند السلطان بايزيد فهرب السلطان أحمد إلى دولة المماليك وهرب الأمير قرا يوسف إلى الصحراء العربية.

ومن نتائج تلك المعركة خضوع المماليك فى مصر والشام لحكم تيمورلنك بعد هزيمتهم أمامه.

وكانت معركة أنقرة آخر معارك تيمورلنك حيث غادر آسيا الوسطى عام ١٤٠٢م إلى سمرقند.

---

(١) اقرأ كتابنا فرسان مالطا وغزو العراق» لتتعرف على المزيد والمفيد عن هذه المنظمة الماسونية القديمة الحديثة ودورها فى الأحداث العالمية الحالية ـ الناشر دار الكتاب العربى.



12

نهاية الطاغية قبل غزوه الصين

- عودة تيمورلنك إلي سمرقند بعد أن حقق ما أراد من إخضاع العالم الإسلامى فى آسيا واستعداده لغزو الصين وموته قبل تحقيق ذلك عام ١٤٠٥م.
- الصراع على السلطة بعد وفاة تيمورلنك بين أحفاده وتفكك إمبراطوريته.

عودة تيمورلنك لعاصمة ملكه سمرقند واستعداده لغزو الصين وموته المفاجئ عام ١٤٠٥م

لقد تحقق لتيمورلنك ما أراد من فتوحات فى آسيا وكانت معركة أنقرة وهزيمته للإمبراطورية العثمانية وأسر سلطانها وإمبراطورها قد زلزل كل ممالك الأرض شرقاً وغرباً ولم يبق إلا الإمبراطورية الصينية فى الشرق الآسيوى فعقد العزم على غزوها وضمها إلى مملكته كما فعل جنكيزخان وأولاده من بعده.

استقبلت سمرقند قائدها وزعيمها وملكها تيمورلنك وخطب تيمورلنك فى كبار رجال الدولة وقواد جيشه فقال لهم: لقد افتتحنا كل آسيا ماعدا الصين وقد تغلبنا على ذلك العدد الكبير من الملوك العظام وستظل إنجازاتنا حديث الناس على مر الزمن لقد كنتم رفاقى فى حروب كثيرة ولم تهزموا قط ولكن رسالتنا لم تنته بعد، فهناك الصين الوثنية القائمة إلى جوارنا وهى ضعيفة هرمة ولن يستدعى التغلب عليها طاقة كبيرة.

جهز تيمور جيشاً قوامه مائتى ألف مقاتل ولم يتنظر حتى انقضاء فصل الشتاء وسار حفيده الأمير خليل مع فرقة من الجيش هى الميمنة وعبروا نهر سمرقند والبرد شديد واجتازوا بوابة تيمور والثلوج تتساقط وقد اكتست الأرض باللون الأبيض لون الثلوج وكانت الحركة من الصعوبة بمكان فى ظل هذا الجو القاسى وقد هلك بعض الجنود وكان الجليد قد أصبح بعمق ثلاثة أقدام على سطح النهر حتى إن الجيش عبر النهر مشياً.

شق الجيش طريقه باتجاه مدينة أوترار المؤدى إلى بلاد الصين وتيمورلنك قد قرر المضى قدما نحو هدفه وتوقف قليلاً فى أوترار حتى مارس عام ١٤٠٥م

وأراد استكمال مسيرته إلا أن القدر لم يمهله فقضى نحبه فى أوترار فجأة وقد جاوز السبعين من عمره وكانت وصيته قبل موته أن يستمر الجيش فى طريقه لغزو إمبراطورية الصين وأن يتولى حكم إمبراطوريته حفيده بير محمد بن جهان كير وأخذ العهود من قادة جيشه على مبايعته.

واستدعى أحفاده ليخبرهم باختياره وإنفاذ وصيته واستدعاء بير محمد بن جهان لتولى المنصب حيث كان فى بلاد الهند وبالتالى لم يكن الحفيد الوريث متواجداً مع الجيش ولذلك رأى القادة عدم إعلان نبأ وفاة تيمورلنك وانتخاب أحد الأحفاد الآخرين لقيادة الجيش واستكمال غزو الصين.

تم تكفين جثمان تيمورلنك وحمله حفيده أولوخ وقوة كبيرة إلى سمرقند لدفنه هناك.

إلا أن بعض القادة قد اتفقوا على اختيار خليل بن ميران شاه حفيد تيمورلنك إمبراطوراً بدلاً من بير محمد ولهذا توقفت مسيرة الجيش نحو الصين ولم تنفذ وصية تيمورلنك فى غزو الصين ولا فى اختيار حفيده بير محمد مكانه.

واستولى حفيده خليل على السلطة وتزوج من غانية فارسية وأجلسها معه على عرش البلاد وكانت تساعده حاشية البلاط الملكى من النبلاء والقواد وكان سلوكه فاسداً فى الحكم يشرب الخمر ويكثر من اللهو هو وزوجته اللعوب.

قدم بير محمد من الهند وحاول الاستيلاء على العرش المسلوب منه فلم يستطع وهزمه جيش ابن عمه خليل ولكن بعض القواد القدامى الذين قد أقسموا على الولاء لتيمورلنك انقضوا على سمرقند وتغلبوا على خليل وأعوانه وقبضوا عليه وأودعوه السجن وقتلوا زوجته الغانية.

واتفق قادة الجيش على تولية شاه روخ بن تيمور وتم استدعاؤه من خراسان لتنصيبه على العرش بسمرقند وعين ابنه أولوخ حاكماً على المدينة.

واستطاع شاه روح وابنه المحافظة على إمبراطورية تيمورلنك ونشطت

التجارة فى عصرهما وأسس أحفادهما دولة المغول فى الهند والتى حكمتها حتى عام ١٧٠٧ لكن عقد إمبراطورية قد انفرط بموت مؤسسها بسنوات قليلة حيث استعاد العثمانيون الأتراك دولتهم وقوتهم وسطوتهم على العالم الإسلامى وأوروبا واستطاعوا فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م واستعاد المماليك قوتهم وأحكموا قبضتهم على الشام والحجاز ومصر وعادت بغداد والعراق إلى سابق عهدهما.

وقد ترك تيمورلنك مخطوطتين من تأليفه مخطوطة هى مذكراته الشخصية وتحكى مسيرته وغزواته وأخرى ذكر فيه آراءه السياسية فى الحكم والإدارة والخطط العسكرية.

وقد اختلف المؤرخون حول شخصيته فقد كان فى أول حياته قبل أن يتولى الحكم ويصبح ملكاً وإمبراطوراً ثائراً على الخان الطاغية فلما أصبح خاناً صار طاغية.

وهناك من يرى أنه كان مجاهداً فى سبيل دين الله الإسلام وهؤلاء هم قومه وعشيرته فى بلاد ما وراء النهر.

لكن التاريخ الذى سجله تيمورلنك أنه حقق إمبراطورية كبيرة وخاض معارك كثيرة حقق فيها انتصارات مبهرة على جثث بشرية وهدم المدن والحضارات وأوقف انتشار الإسلام فى حياته ولسنوات بعد مماته وكان يضع الأبراج العالية من جماجم أعدائه من المسلمين وأجرى الدماء أنهاراً وغالى فى القتل ومثله فى التاريخ كُثُرٌ.

وكل ما فعله وأمثاله ينافى الشريعة الإسلامية وأبسط تعاليم الإسلام فقد كان تيمور ينتسب إلى الإسلام لكنه كان ملتزماً بشريعة جنكيزخان الوثنية.

قال عنه المؤرخ ابن عربشاه الذى عاصره إنه سفاك لا يرحم وإنه محتال كبير وشيطان رجيم وطاغوت فى الشر والأذى.

والحقيقة أنه كان طاغية مثل باقى الطواغيت وإن كان مسلماً لكنه غير

ملتزم بشريعة الله مثل الكثير من المغول الذين دخلوا فى الإسلام رغم ادعائه أن حروبه كانت دفاعاً عن الإسلام والمسلمين.

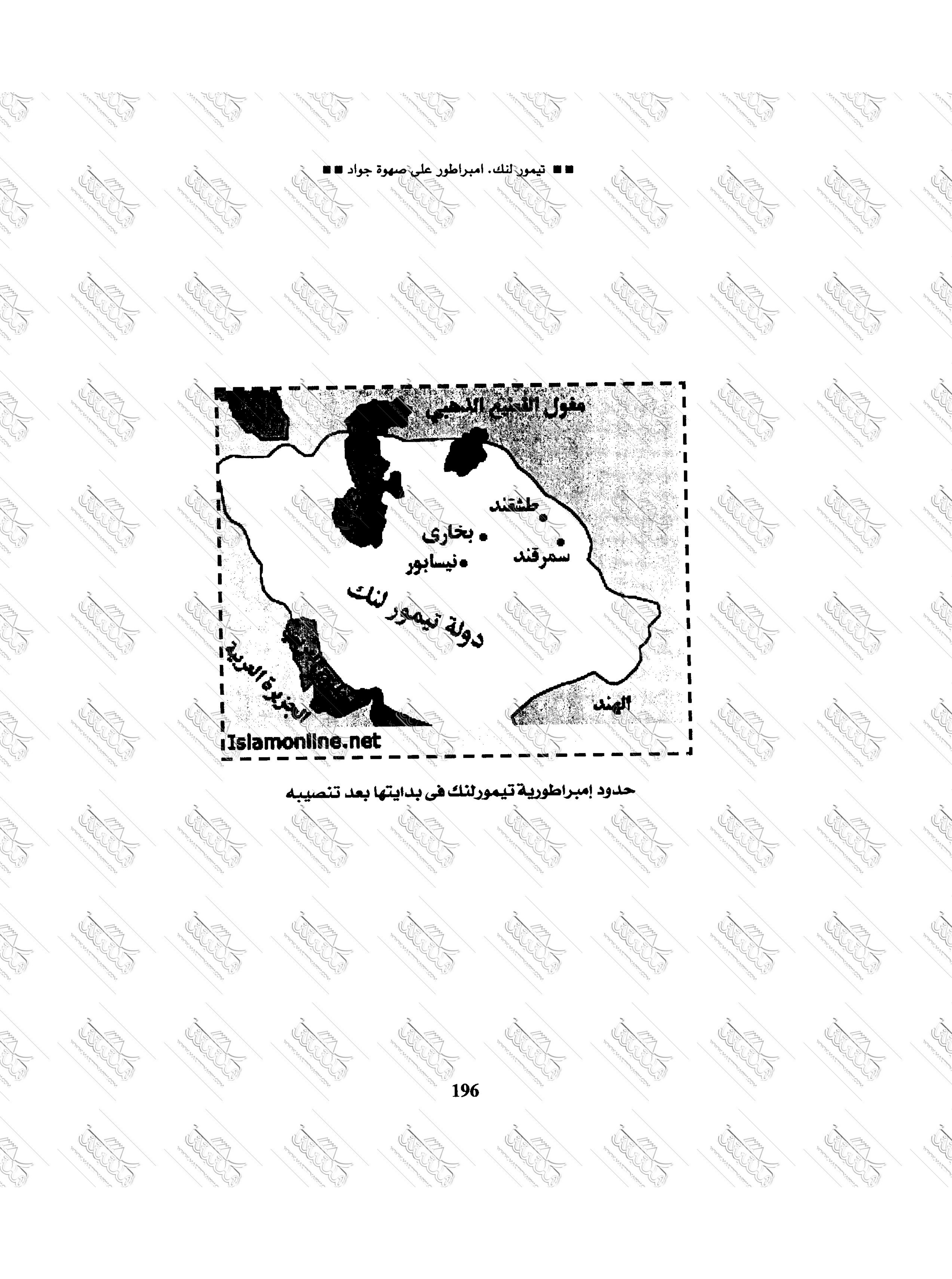
واتخذ تيمورلنك جنكيز خان قدوته وسار على نهجه حتى فى موته فقد مات جنكيزخان فجأة وهو فى طريقه لإخضاع إمبراطورية الصين وقد تجاوز السبعين أيضاً ولكن جنكيز خان قد قسم إمبراطوريته قبل وفاته بين أولاده من زوجته الأولى فاستقرت دولته وتوسعت من بعده أما تيمورلنك فلم يوصى لأحد من أولاده أو أحفاده إلا حين لحق به الموت وأدركه ولم ينفذ قواده وأحفاده وصيته.

تلك هى سيرة الطاغية المسلم تيمورلنك الذى أضر بالإسلام والمسلمين كثيراً وكانت جل حروبه ضد المسلمين فالأشجار تعرف بثمارها وتيمورلنك ترك وراءه أنهاراً من دماء البشر والمدن المهدمة وأوقف المد الإسلامى فى قارة أوربا لسنوات طويلة.

■ ■ ■



تمثال تيمورلنك فى سمرقند



حدود إمبراطورية تيمورلنك فى بدايتها بعد تنصيبه



إمبراطورية تيمورلنك



بلاد ما وراء النهر فى العصر المغولى أيام تيمورلنك

كلمة أخيرة

لكل بداية نهاية مقدرة فى علم الله ولكل أجل كتاب ولكل طاغية نهاية وكما يقال: إن دولة الظلم والطغيان لا تدوم وإن طالت بها السنون.

وبعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة من الحروب التى خاضها تيمورلنك منذ شبابه ثائراً حتى توليه الحكم وجلوسه على كرسى الخانية وحقق حلمه فى تكوين إمبراطورية كبيرة لكنه لم يوسع رقعة الأراضى الإسلامية.

فقد قام بضم الدول الإسلامية شرقاً وغرباً ولم يقم بفتح دول غير إسلامية وإنما أوقف الجهاد الحقيقى الذى هو نشر الإسلام فى بلاد الكفر.

فالجهاد الحقيقى هو الذى قام به الصحابة فى العصور الأولى للإسلام ومن سار على نهجهم من التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما تيمورلنك فهو مثل جنكيز خان وهولاكو خان وهم طغاة المغول سفكوا الدماء وهدموا المدن والحضارات وعطلوا سير الحضارة الإسلامية حتى استطاع الاستعمار الغربى احتلال البلاد العربية والإسلامية ولم يدمر تيمور بلاد الغرب الكافرة بل إنه توقف على حدودها.

ولم يلتزم تيمورلنك بتعاليم الإسلام وأحكامه وإنما التزم بتعاليم وأحكام جنكيز خان «الياسا» وهذا مخالف للإسلام ولهذا كفَّر فقهاء وشيوخ الإسلام المغول الذين أسلموا واحتكموا بقوانين جنكيز خان ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالته حكم من بدل شرع الله.

وعلينا أن نستوعب الدروس والعبر من سير هؤلاء الطغاة.

إن التاريخ يعطينا العظة والعبرة ويؤكد لنا أن الطاغية مثل السكران لا يشعر بشىء إلا بذاته وقد ذهب عقله لا يفيق إلا عند الموت.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل منا عملنا هذا وسائر أعمالنا الأخرى الصالحة وأن تكون زاداً لنا حين لقائه يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

أهم المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ تاريخ ابن قاضى شهبة.

٥ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزى.

٦ ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ـ بارتولد ـ ترجمة د. أحمد السعيد سليمان.

٧ ـ نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ـ الخطيب الجوهرى.

٨ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى.

٩ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر ـ ابن حجر العسقلانى.

١٠ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ابن إياس.

١١ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ جمال الدين أبو المحاسن.

١٢ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ عبد الرحمن بن خلدون.

١٣ ـ الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام ـ شمس الدين محمد بن طولون.

١٤ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ أبو الفلاح ابن العماد الحنبلى.

١٥ ـ تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الدول والملوك.

١٦ ـ البداية والنهاية لابن كثير.

١٧ ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ بدر الدين ـ محمود العينى.

١٨ ـ جامع التواريخ ـ رشيد الدين فضل الله الهمذانى.

١٩ ـ تاريخ ابن عربشاه.

٢٠ ـ تيمورلنك ـ محمد أسد الله صفا.

٢١ ـ الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى ـ حافظ أحمد حمدى.

٢٢ ـ تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادى.

٢٣ ـ تاريخ الإسلام ـ للذهبى.

٢٤ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى.

■■■

الكاتب فى سطور

- منصور عبدالحكيم محمد عبدالجليل.
- من مواليد القاهرة.
- حاصل على ليسانس فى الحقوق جامعة عين شمس عام ١٩٧٨م.
- يعمل بالمحاماة والكتابة.
- له العديد من الإصدارت والدراسات الإسلامية والمقالات فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية وله أكثر من مائة كتاب ومجلد أثرت المكتبة العربية والإسلامية.

صدر له

١ - السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.

٢ - نهاية العالم وأشراط الساعة.

٣ - عشرة ينتظرها العالم.

٤ - يأجوج ومأجوج من الوجود إلى الفناء.

٥ - تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.

٦ - واقتربت الساعة.

٧ - البداية فتن والنهاية ملاحم.

٨ - هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.

٩ - أقدم تنظيم سرى فى العالم.

١٠ ـ من يحكم العالم سراً؟.

١١ ـ العالم رقعة شطرنج.

١٢ ـ أسرار الماسونية الكبرى.

١٣ ـ أوراق ماسونية سرية للغاية.

١٤ ـ مؤامرات وحروب صنعتها الماسونية.

١٥ ـ حكومة الدجال الخفية الماسونية.

١٦ ـ جنكيزخان إمبراطور الشر.

١٧ ـ هولاكو المارد القادم من الشرق.

١٨ ـ صلاح الدين المنقذ المنتظر.

١٩ ـ العراق أرض النبوءات والفتن.

٢٠ ـ الإمبراطورية الأمريكية البداية والنهاية.

٢١ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء وأشراط الساعة.

٢٢ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

٢٣ ـ نهاية العالم قريباً.

٢٤ ـ الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.

٢٥ ـ ازدراء وإيذاء الأنبياء.

٢٦ ـ جبريل أمين الوحى الإلهى.

٢٧ ـ إسرافيل وأهوال يوم القيامة.

٢٨ ـ ملك الموت.

٢٩ ـ مالك خازن النار وأهوالها وأهلها.

٣٠ ـ رضوان حارس الجنة وأهلها ونعيمها.

٣١ ـ المهدى فى مواجهة الدجال.

٣٢ ـ هرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل ـ مشترك.

٣٣ ـ نهاية دولة إسرائيل عام ٢٠٢٢م

٣٤ ـ نساء أهل البيت.

٣٥ ـ نهاية ودمار أمريكا وإسرائيل.

٣٦ ـ الحرب السابعة وزوال إسرائيل ونهاية اليهود.

٣٧ ـ بنات الصحابة.

٣٨ ـ بيوت الرسول والصحابة حول المسجد النبوى.

٣٩ ـ زوجات الأنبياء والرسل.

٤٠ ـ شهداء الصحابة فى العصر النبوى.

٤١ ـ أصحاب البروج فى مواجهة أصحاب الكهوف.

٤٢ ـ فرسان مالطا وغزو العراق.

٤٣ ـ الحرب العالمية الأخيرة.

٤٤ ـ الحياة الأخرى.

٤٥ ـ أسرار قارة أطلانتس والأطباق الطائرة ومثلث برامودا.

٤٦ ـ السفيانى صدّام آخر على وشك الظهور.

٤٧ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٤٨ ـ المهدى المنتظر.

٤٩ ـ أعمال يحبها الله.

٥٠ ـ القرين العدو الحقيقى للإنسان.

وكتب آخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

فهرس المحتويات